

الفصل الخامس

الجهاد في سبيل الله

كان للرسول (ص)، في الدور المبكي، يدافع عن مبادئه ودعوته بالإقناع، والحجة والآيات المنزلة، فجعل منها سبيل جهاده : « فلا تطع الكافرين، وجاهدوهم به » (أي بالقرآن الكريم). أما بعد الهجرة، أي في الدور المدني، فقد أذن للرسول، وللمسلمين بالقتال، حين نزل قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وأن الله على نصرهم لقدير، للذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله »

وكان من دوافع القتال في الإسلام للدفاع عن النفس : « وقاتلوا في سبيل الله، للذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين ». وحرب الدفاع عن النفس هي الحرب للعادلة، التي يراد منها منع الظلم والعدوان .

كما كان منها حماية حرية نشر الدعوة، وليس المقصود بذلك الحرب لنشر الإسلام، وإنما تأمين حرية الدعوة إليه . أما الحرب لنشره بالقوة فيمنعها قوله تعالى : « لا إكراه في الدين، قد تبين للرشد من الغي »، فهدف الحرب في الإسلام هو تحقيق حماية حرية العقيدة، وتأمين حرية نشرها بين الناس، وكذلك المحافظة على وحدة الأمة،

والقضاء على الفتنة : فقد أجاز الإسلام قتال للفتنة المسلمة ، الخارجة على النظام العام ، فقال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغي ، حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت ، فأصلحوا بينهما بالعدل . وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون أخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون . »

وهكذا نرى أن الحرب في الإسلام إنما هي حرب شريفة دفاعية إنسانية ، تقوم على رد العدوان ، ومنع الظلم ، وحماية حرية الدعوة ، والقضاء على الفتنة ، وتوطيد أركان الإسلام . ومن أجل ذلك تطلب الإسلام من أتباعه إعداد للقوة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم . » ودعا الإسلام إلى السلام ، وللبعد عن كل عدوان ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة . » كما قال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » .

وأوضح الإسلام موقف المسلمين من غيرهم ، وأن لا عدوان إلا على الظالمين « فقال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين . ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوك في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم ، ومن يتولهم ، فأولئك هم الظالمون »

لقد كانت الحرب في الإسلام دفاعية : فلم يقاتل رسول الله (ص) أحداً إلا مضطراً لقتاله ، وجميع غزواته (ص) كانت لرد اعتداء ، أو

لإحباط نية اعتداء ، ولم يجد (ص) من عدو ميلاً إلى السلام ، إلا بادر إلى ذلك . كما أنها كانت حرباً لتوطيد السلام : فقد كان الرسول (ص) يجيب كل عدو يدعو إلى السلم : فحين طلب مشركو مكة للسلام ، منحهم إياه ، فحالفهم ، وسالمهم ، في صلح الحديبية . وحين طلب يهود يثرب للسلام ، أجابهم إليه . وكذلك فعل مع كل قبيلة تريد محالفته وإقامة حالة السلم معه . فالسلام أمر يدعو الإسلام إليه ، ويعتبره أصلاً ، بينما يعتبر الحرب حالة استثنائية ، لظروف تقتضيها . ويجدر بنا أن نلاحظ أن الإسلام يدعو إلى السلام ، لا إلى الاستسلام . لذلك كانت الحرب في الإسلام حرباً إنسانية شريفة ، تقوم على احترام قواعد الشرف ، فلا تتعرض للأبرياء : فإن للرسول (ص) لم يتعرض . في غزواته ، لغير المقاتلين . فعندما خان بنو قريظة عهودهم ، وعرضوا المسلمين للفناء ، في غزوة الخندق ، كان جزاؤهم للقتل : فقتل الرجال ، دون الأطفال والنساء . والمرأة الوحيدة التي قتلت منهم ، هي التي قتلت أحد المسلمين ، بإلقاء الرمح عليه ، وكان قتلها عقاباً لها على جريمتها . وعندما خرج المسلمون في غزوة مؤتة ، أوصاهم الرسول (ص) بالإبقاء على النساء والأطفال والمكفوفين ، ولا يهدموا المنازل ، ولا يقطعوا الأشجار ، فالقاعدة الإسلامية ألا يؤخذ للبريء بجريرة المسيء « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

ومن قواعد الشرف في الحرب أن يعامل الأسرى والرهائن معاملة إنسانية . فقد أوصى الرسول (ص) أصحابه خيراً بأسرى بدر ، فقال :

« استوصوا بالأسارى خيراً »: فقبل للفداء من بعضهم ، وأطلق سراح للبعض ، دون مقابل ، وعلم بعضهم أطفال المسلمين للقرآءة وللكتابة ، فأطلق سراحهم . أما الأسيران اللذان قتلوا من هؤلاء الأسرى ، بأمر من الرسول (ص) ، فقتلها لم يكن لأسرهما ، وإنما كان لأنهما أجزا ما في حق المسلمين ، وعذبا المستضعفين ، فنالا جزاء ما ارتكبا من جرائم وآثام . أما الرهائن ، فما عرف في تاريخ المسلمين اعتداء على أحد منهم .

ومن قواعد الحرب الإنسانية للعناية بجرحى العدو ، وجثث قتلاه : فقد وقف المسلمون من جرحى المشركين ، في معركة بدر ، كوقفهم من جرحاهم : بتمريرهم ، وللعناية بهم ، كما دفنوا جثث شهدائهم . بينما كان موقف عدوهم ، في معركة أحد ، موقفا مضاداً ، حيث مثل المشركون بجثث للشهداء من المسلمين .

والحرب في الإسلام حرب عقيدة ، لا تكون لأغراض شخصية ، أو عنصرية ، لأنها تستهدف تحقيق رسالة ، فهي فوق الأشخاص وللعنصريات ، يحارب المرء فيها قومه ، إن رأى فيهم انحرافاً عن المبدأ : فالرسول (ص) حارب قريشا ، وهو منها ، واعتبر جميع الذين اعتنقوا الإسلام إخوة ، لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » .

والحرب في الإسلام لم تكن لأغراض مادية ، وحياة للرسول (ص) خير مثال على ذلك ، فكان يأخذ حصته من الغنائم والفيء ، ويردها على مصالح المسلمين : ويكفي في هذا المقام قول عائشة ، أم المؤمنين : « ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين ، حتى قبض رسول الله (ص) » .

ونقول أيضا : « توفي رسول الله (ص) ، وليس عندي شيء يأكله
ذو كبد ، إلا شطر شعير في رجلي . وتوفي ، ودرعه مرهونة ، عند
يهودي ، في ثلاثين صاعا من شعير » . ونقول « كنا ، آل محمد ، نمكث
شعرا ، ما نستوقد بنار ، ن هو إلا للتمر والماء » .

ومما هو جدير بالذكر ، في هذا المقام ، أن بعض المستشرقين أرادوا
الطعن في الإسلام ، فقالوا إنه انتشر بالقوة والسيف ، ولم يفرقوا في ذلك
بين الإسلام ، كعقيدة ، لا تجز أن يكره أحد على اعتناقها ، وبين
الإسلام ، كنظام سياسي ، وحدود سياسية ، اتسعت بالقوة ، وأخضعت
لحكمها . لا لعقيدتها . دولا وشعوبا عديدة ، مستهدفة تحطيم أنظمة
سياسية ، تقوم على الظلم ، وتحول دون حرية نشر للعقيدة .

ويمكن الرد على من يقولون إن الإسلام انتشر بالسيف ،
بأن اسم السيف ، على كل حال ، لم يكن سوى ضرورة في كفاح المسلمين ،
داخل الجزيرة العربية ، ضد المشركين ، الذين اعتدوا عليهم ، وأذوهم ،
وصادروا أموالهم . ذلك لأن للنبي (ص) ظل يبذل قصارى جهده
ليسلم المشركين ، فلما أبوا إلا الاعتداء على المسلمين ، اضطر ، آخر الأمر
أن يجابه للقوة بالقوة ، وأن يذود عن الإسلام بنفس الوسيلة ، لأنه لو
رضى بالعجز ، دون مقاومتهم ، لما عبد الله على الأرض ، ولقضى على
المسلمين . ولنتأمل بعد ذلك ، كيف عامل الرسول (ص) هؤلاء اللقوم ،
لما فتح مكة ، فقد أسخ على أهلها عفوه ، ونسى عدوانهم . وعلى الرغم من
هذا ، فلم يبلغ عدد القتلى في معارك النبي ، أكثر من سبعين ، في غزوة بدر ،
وأحد عشر ، في أحد ، وثلاثة ، في الأحزاب ، وحوالي العشرة ، في الفتح .
وهذا كله لم يجاوز المائة في معارك الجزيرة كلها . أين هذا من إبادة

الصليبيين للمسلمين ، في الحملات الصليبية العديدة ؟ وفي الأندلس ، في العصور الوسطى ؟ ومن إبادة الفرنسيين للجزائريين ، ومن حمامات الدم العربية التي أراقها وتزيقها ، إسرائيل ، في عصرنا الحاضر ؟ أو أكبر دليل على أن الإسلام - دين للفطرة - يشق طريقه إلى القلوب ، أنه انتشر في جهات ، لم يرفع فيها المسلمون سيفاً ، ولم يقيموا دولة : فهذه اندونيسيا ، وجهات غرب أفريقيا انتشر فيها الإسلام ، منذ عشرة قرون ، عن طريق التجار المسلمين ، الذين كانوا يرتادون تلك الجهات ، فيجذبون أهلها إلى دينهم ، بأيمانهم للصادق ، ومعاملتهم للطيبة ، واليوم في عصر الحرية ، يجتذب الإسلام عدداً كبيراً من المسيحيين المثقفين من جميع الدول ، بشكل لم يسبق له مثيل . وإن التصفح للمجلات الإسلامية ليطرب إذ يرى الإسلام يجذب إلى رحابه تلك الصفوة من المسيحيين . وإن إسلام مثل هؤلاء ، في هذا العصر ، للذي نعيش فيه ، هو أكبر دليل على ملاءمته لطبيعة للبشر .

ولم ينشأ ، في عهد النبي (ص) ، جيش منظم ، أو ديوان خاص للجند ، وإنما كان جميع الرجال من المسلمين جنوداً ، كتب عليهم القتال ، في سبيل للدفاع عن أنفسهم ، وحماية دينهم . وكان للنبي (ص) نفسه للقائد الأعلى لقوات المسلمين ، وقد قاد الغزوات ، كما حدث في بدر ، وأحد ، والخندق ، وفتح مكة ، وحنين . وقد بلغت غزواته ستاً وعشرين (أو ثمان وعشرين) غزوة . أما للسرايا ، التي كان يرسلها ، ويؤمر عليها من أصحابه ، فقد بلغت خمسا وثلاثين .

وكان لصفات الرسول (ص) العسكرية ، وعبقريته الحربية ، فضل كبير في نجاحه ، كقائد عسكري . وقد ذكر بعض العسكريين تلك المزايا ، التي يندر أن تجتمع لقائد واحد . ومن ذلك ما كتبه (لاواء الركن محمود شيت خطاب) ، في كتابه «الرسول للقائد» ، من أن الرسول (ص) جمع الصفات المثالية للقائد الممتاز وهي : القدرة على إعطاء القرار السريع للصحيح ، والشجاعة للشخصية ، والإرادة للقوية الثابتة ، وتحمل المسؤولية ، بلا تردد ، ومعرفة مبادئ الحرب ، والنفسية ، التي لا تهزل ، في حالتها للنصر والاندحار ، وسبق للنظر ، ومعرفة نفسيات مرؤوسيه وقابليتهم ، وثقة قطعاته به ، وثقته بقطعاته ، والمحبة المتبادلة بينه وبين قواته ، والشخصية للقوية النافذة ، وللقابلية للبدنية ، والماضي للتأصع المجيد .

وقد طبق الرسول (ص) أساليب جديدة مبتكرة ، واستخدم أسلحة جديدة في القتال ، هذا إلى جانب تواضعه مع جنده : فكان يعمل معهم كواحد منهم ، يحمل الحجارة ، وينقل القراب ، ويحفر الخندق ، ويكون تارة مع المشاة ، وأخرى مع الراكبين ، ولم يستغن عن مشورة أصحابه ، وكثيراً ما كان ينزل عند رأيهم .

وكانت للروح المعنوية ، عند المسلمين ، في هذه الفترة من صدر الإسلام ، عالية جداً ، بعد أن باعوا أنفسهم لله . يقاتلون ويقتلون في سبيله « ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل ، أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . وقد أعطاهم القرآن درساً في الصبر على الأعداء بقوله :

«ولا تنهوا في ابتغاء للقوم أن تكونوا تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون». وقد أوضح الإسلام وجوب الثبات في القتال، وعدم الفرار من المعركة، فقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره، إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المصير». وقد حارب الإسلام عوامل للضعف والخور في نفوس المسلمين، وانتزع منها حب الدنيا، ودفعها للجهاد في سبيل الله، وجعل الجهاد عند المؤمنين حقاً، فوق حب الأهل، وللولد، وللعشيرة، والمال، فقال تعالى: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة نخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي للقوم الفاسقين»

وأشعر القرآن المسلمين بقوتهم، في حال إيمانهم وصبرهم، ووعدهم النصر: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، بأذن الله، والله مع الصابرين». وذلك بصورة خاصة في المعارك الأولى للإسلام، يوم كان المسلمون في أعداد قليلة، بالنسبة لعدوهم. وصفوة القول أن الإسلام فرض على أتباعه الجهاد في سبيل الله.

وتعتبر حادثة هجرة المسلمين، من مكة إلى يثرب عملية حشد عسكري للجنود في قاعدة أمينة، تمت بهجرة للقائد للعام، محمد (ص)، واجتماعه هناك بقوته. وكان المسجد الذي بناه للرسول والمسلمون

في المدينة أول ثكنة للجند ، وجاءت عملية المؤاخاة ، فكانت عملية صهر للقوى العسكرية ، فعدت تلك للقوة جسما واحدا ، وبدا واحدة ، تعمل لهدف واحد ، تحت قيادة واحدة .

ثم كانت المعاهدة ، الصحيفة ، التي عقدها للرسول (ص) مع اليهود والمشر كين من أهل يثرب ، عملا عسكرياً رائعا ، إلى جانب فوائدها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فاتضحت من تلك المعاهدة بوادر تنظيم عسكري ، يقوم على اعتراف الجميع بقيادة محمد (ص) لجميع سكان المدينة : مسلمين وغير مسلمين ، وضمنت تلك المعاهدة اشتراك الجميع في الدفاع عن المدينة ، والاشتراك في تكاليف هذا الدفاع ، وحرمت المعاهدة حماية المشر كين من قريش ، للقضاء على عمليات التجسس والتآمر . كل ذلك يتم في وقت أوشك للقتال فيه أن يقع ، فكانت تلك المعاهدة من أروع الأعمال في التنظيم الحربي ، الذي يسبق المعركة ، فتم للقائد للرسول بذلك : قوة من المسلمين ، كجسد واحد ، بعقيدة واحدة ، وقاعدة عسكرية قوية ، وتحالف مع الجوار ، يضمن للعون والتأييد .

التفت للرسول (ص) بعد هذه الأعمال التنظيمية ، التي لا بد منها قبل خوض المعركة مع الخصم العنيد للقوي ، إلى تنظيم للدوريات والأسرايا : وكان يهدف منها إلى إشعار لليهود والمشر كين بقوة المسلمين وتحقيق أهداف عسكرية أخرى ، بالنسبة إلى قريش ، لتأمين حربة انتشار للدعوة . وكانت فكرة التعرض لقوافل قريش للتجارية من

أول الأهداف ، التي أرادها للقائد الرسول (ص) ، لأن تلك للقوافل تعتبر بالنسبة لقريش ، للعصب الحساس ، ومورد الرزق ، وكان للرسول بهد بأعماله هذه طرق للتجارة لقريش ، وبالتالي مكانة مكة الاقتصادية ، مما كان له أكبر الأثر في الضغط على قريش ، وإخضاعها ، وإبعادها من طريق حرية انتشار الإسلام ، ولرد على عدوانها ، وأعمال للظلم ، التي ارتكبتها ضد المسلمين .

وكانت تلك للدوريات وللسرايا الأولى عمليات استطلاع ، تعرف المسلمون خلالها على المنطقة المحيطة بالمدينة ، وطرقها ، وقبائلها مما سيحتاجون إليه في مستقبلهم للقريب . واستخدام للرسول (ص) في هذه الفترة أسلوب الرسائل المكتومة ، للمحافظة على الأسرار العسكرية ، والكنان من أهم عوامل النصر على الأعداء ، ويساعد على تحقيق مبدأ المباغتة ، مما عرف أثره الكبير في الحروب الحديثة ، فكان (ص) يعطي قائد للسرية رسالة ، يأمره بفتحها ، بعد مسير مدة معينة ، في اتجاه معين ، ثم يعمل بمضمونها .

ويرى بعض الكتاب أن للغاية من تلك للسرايا ، للقليلة للعدد ، لم يكن قتال قوافل قريش ، وإنما تهديد سلامة طرقها ، وإشعارها بقوة المسلمين ، وتحكمهم في طريق مكة والشام ، وذلك لدفعها نحو التفاهم مع المسلمين ، وإنهاء تلك للعداوة للإسلام ، وتهيئة الجو لحربة انتشاره ، وترك من يريد اعتناق الدين الجديد ، دون أن تطارده بالأذى والعذاب ، وبالتالي يمكن عندئذ للمسلمين أن يدخلوا مكة ، وأن

بطوفوا بالبيت للعنيق . ولتحقيق هذه الأغراض ، ولنجاح المسلمين
في الضغط على طرق مكة التجارية ، حالف محمد (ص) للقبائل النازلة
على تلك الطرق .

ومما يؤيد هذا الرأي حول أهداف تلك السرايا ، أن الأنصار ،
عندما بايعوا محمداً (ص) ، بايعوه على الدفاع ، لا على الهجوم ، ولهذا
كان (ص) صريحاً في ذلك معهم ، قبيل غزوة بدر ، ولم يوافق على القتال
إلا بعد موافقتهم . ومن الخير أن نستعرض هذه السرايا والدوريات
الاستطلاعية ، التي سبقت غزوة بدر الكبرى . وهي :

١- سرية حمزة ، وكانت تضم ثلاثين راكباً من المهاجرين ، وقادها
حمزة بن عبدالمطلب ، واستهدفت تهديد طريق تجارة قريش ، بين
مكة والشام ، ووصلت إلى مكان يسمى (العيص) ، على ساحل البحر
واعترضت قافلة لقريش ، بحميتها ثلاثمائة راكب ، بقيادة أبي جهل
ابن هشام ، وقد عاد المسلمون دون قتال .

٢- سرية عبيدة بن الحارث ، وكانت تضم ستين راكباً من المهاجرين ،
واستهدفت قافلة لقريش ، بحميتها أكثر من مائتي راكب ، بقيادة أبي
سفيان ، ووصلت إلى وادي رابغ ، وانتهت دون قتال . وقد فر من
المشركين رجالان ، كانا يخفيان إسلامهما ، وانضما إلى سرية المسلمين ،
واكتفى المسلمون بإظهار قوتهم ، وهديدهم طرق للتجارة .

٣- سرية سعد بن أبي وقاص : وكانت دورية استطلاعية ،
ضمت ثمانية من المهاجرين ، « وقيل عشرين » ، واستهدفت نفس

الأهداف، السابقة وللتعرض لقافلة، لم يعرف عدد رجالها، وقد أسرعت القافلة، ولم يستطع المسلمون اللحاق بها .

٤ - غزوة ودان، وتضم مائتي راكب وراجل، بقيادة الرسول (ص)، واستهدفت تهديد طرق الشام، ووصلت إلى موقع يسمى ودان، للتعرض لقوة من قريش، ومن بني ضمرة، ولم يحدث فيها تصادم، وانتهت بعقد الرسول (ص) حلفاً مع ضمرة .

٥ - غزوة بواط، وهي دورية قتال، تضم مائتي راكب وراجل، بقيادة الرسول (ص)، واستهدفت للتعرض لقافلة تجارية لقريش، بحميتها مائة رجل، بقيادة أمية بن خلف، ووصلت إلى موقع، يسمى بواط، لكن القافلة وصلتها أخبار خروج المسلمين، فغيرت طريقها ونجحت، وعاد المسلمون، بعد إقامة حوالى شهر في بواط .

٦ - غزوة العشيرة، خرجت دورية قتال، تضم مائتي راكب وراجل، بقيادة الرسول (ص)، وكانت تستهدف للوصول إلى منطقة ينبع، للتفاهم مع القبائل في هذه المنطقة، وأقام المسلمون شهراً في موضع العشيرة، حيث وادعوا فيها بني مدالج وحلفاءهم من بني ضمرة، أما قافلة قريش، وكانت بقيادة أبي سفيان، فقد نجحت، وعاد المسلمون دون قتال .

٧ - غزوة بدر الأولى، وخرج فيها الرسول (ص)، على رأس مائتي راكب وراجل، لمطاردة قوات للمشركين، وأنغارت على مراعي قرب المدينة، وسلبت بعض الإبل والأغنام للمسلمين، ولم يدرك الرسول هدفه في هذه الغزوة، ووصلت قوته إلى قوب موقع

بدر ، ثم عاد المسلمون الى المدينة .

٨ - سرية عبدالله بن جحش ، وهي دورية استطلاعية ، تضم ثمانية من المهاجرين وقد أعطى للرسول إلى قائدها ، عبدالله ، رسالة مكتومة ، أمره أن يفتحها ، بعد يومين من مسيره ، لينفذ ما ورد فيها ، غير مستكره أحدا من أفراد قوائمه على مرافقته . ونفذ قائد السرية الأوامر ، وقرأ للرسالة ، في الوقت المحدد ، وإذا بها ، إذا نظرت في كتابي هذا ، فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة ولطائف ، فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم . وأطلع عبدالله أفراد سرية على مضمون الرسالة ، وخبرهم في المسير معه ، حسب أوامر الرسول الكريم ، فلم يتخلف عنه أحد ، وسارت للقوة لتنفيذ أغراضها ، وتخلف عنها سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان ، حيث ذهبا يطلبان بعير آلها ضل ، فأسرتهما قريش . ونزلت سرية عبدالله أرض نخلة ، ومرت بها قافلة لقريش ، يقودها عمر بن الحضرمي ، وتشاوروا في مهاجمتها ، وهم في آخر شهر رجب ، من الأشهر الحرم ، ورددوا بين القتال وعدمه ، وتحمس بعضهم ، وتذكروا ما فعلت بهم قريش ، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم ، فقتله . وأسر المسلمون رجلين ، وفر رجل رابع إلى قريش . وعاد عبدالله بن جحش بالأسيرين والعير ، التي غنمها ، إلى المدينة . ونتج عن هذه السرية ما يلي :

١ - مخالفة قائد للسرية لما ورد في كتاب الرسول (ص) ، بطاب

فيه الاستطلاع ، ولم يرد قتالا .

ب - اندفاعهم وقتالهم في الشهر الحرام ، مما جعل قريش

تنتهز الفرصة ، لتقوم بالدهاية ضد المسلمين بين العرب .
ج - كانت هذه للسرية بداية الأعمال العسكرية المسلحة ، بين
المسلمين والمشر كين ، فقد وقع فيها أول قتيل من المشر كين .
د - حملت هذه للسرية أول غنيمة مع الأسيرين .

وقد غضب للرسول (ص) من عمل رجال للسرية ، وقال : « ما
أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ، وعنف المسلمون عبد الله بن جحش
وأصحابه على عملهم ، ثم نزل للوحي على رسول الله (ص) ، يحل هذه
المشكلة ، التي استغلها المشر كون ، وأراد لليهود أن يشعلوا نار للفتنة بها
فكان قول الله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام ، قتال فيه ، قل قتال
فيه كبير ، وصدد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج
أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل » ولا يزالون يقاتلونكم حتى
يردوكم عن دينكم ، إن استطاعوا » ، وفرح المسلمون ، وخاصة عبد الله
بن جحش وأفراد سريته ، بقول الله ، وأخذ الرسول (ص) الغنيمة ،
والأسيرين ، فطالبت قريش بافتدائهما ، فأبى الرسول إلا أن يأتي سعد
وعتبه ، وقال : « إنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما ، نقتل صاحبكما » . وقدم
من مكة سعد وعتبه ، وأطلق الرسول الأسيرين ، فاعتنق أحدهما ، وهو
الحكم بن كيسان ، الإسلام ، وبقي في المدينة . أما الآخر فانطلق
إلى مكة .

وفي هذه الحادثة ، بين الإسلام رأيه في للقتال في الأشهر الحرم ،
واعترف للقرآن للكريم بحرمة هذه الأشهر ، لكنه رد على دعايات

المشركين بأنه إن كان القتال في الأشهر الحرم جريمة وكبيرة . فهناك ما هو أكبر من هذا العمل إثماً وجريمة ، وهو للصد عن سبيل الله ، وإخراج للناس من بلدهم الحرام ، وتعذيب المؤمنين ، لفتنتهم عن دينهم ، وبحق لمن ترتكب في حق هذه الجرائم أن يقاتل ، في الشهر الحرام ، وفي غير الشهر الحرام .

غزوة بدر الكبرى

١٧ رمضان سنة ٢ هـ

كانت حادثة مقتل عمرو بن الحضرمي شيرة لمشركي قريش . ولا بد أنهم فكروا في الثأر ، وهم إنما ينتظرون للفرصة المناسبة ، للانتقام . وازدادت في نفوسهم هذه الرغبة بعد ما سمعوه عن تعرض قوافلهم للتجارية لخطر مهاجمة المسلمين لها ، مما أصبح معه طريقهم إلى الشام محموقاً بالخطر الدائم ، وهذا ما يهدد اقتصادهم بالدمار ، خاصة وأن هذا الطريق هو أهم طرقهم التجارية .

أما المسلمون فيعتقدون أيضاً في حقهم في مقاتلة قريش ، وبخاصة المهاجرون منهم ، للذين يريدون استعادة أملاكهم وحقوقهم في مكة إلى جانب نعمة المسلمين عامة على قريش ، لموقفها المعادي للإسلام . أما لليهود فكان موقفهم مريباً في بئر ، فهم يثيرون حرباً باردة ضد المسلمين ، ويختلقون المشاكل ، وكأنهم عيون للمشركين بين المسلمين ،

أو بتعبير حديث ، طـابور خامس ، يخدم أعراض مشركي قريش .
وكانت الأسباب البعيدة لغزوة بدر ترجع إلى للعداء بين المسلمين
ومشركي قريش ، نتيجة لما أصاب المسلمين المهاجرين ، قبل هجرتهم ،
على أيدي المشركين ، إلى جانب رغبة المسلمين في الحصول على حرية
نشر الإسلام ، ومنع قريش من تعذيب المسلمين الجدد ، وتحقيق حرية
الاعتقاد في مكة .

أما الأسباب القريبة ، المباشرة ، فكانت رغبة المسلمين في التعرض
للقافلة التجارية لقريش ، بقيادة أبي سفيان . وقد خرج
المشركون من مكة ، لحماية هذه القافلة من المسلمين . وكان المسلمون
يرغبون في إرهاب قريش ، وإشعارها بقوتهم ، فظلوا ، على
الرغم من نجاة القافلة ، وإفلاتها منهم . في موقع بدر ، دون أن يعودوا
إلى المدينة ، ليوافقوا المشركين ، الذين خرجوا إليهم .

أما قريش فكانت ترغب في القتال ، لتأخذ بثأر عمرو بن الحضرمي ،
ولتفرض هيبتها بين العرب . ولهذا تغلبت أراء الراغبين في القتال ،
على الرغم من وصول خبر نجاة القافلة للتجارية .

وكانت قافلة قريش هذه في طريق سفرها إلى الشام ، فأخذ المسلمون
ينربصون عودتها ، وبعث الرسول (ص) رجلين ، وهما : طلحة بن عبيد
الله ، وسعيد بن زيد ، فتماا ليحملا إليه أخبار القافلة ، بمهمتهما ،
على خبر الوجوه .

عرض الرسول (ص) على المسلمين أمر الخروج ، لاعتراض

للقافلة ، وقال : « هذه غير قريش ، فاخرجوا إليها ، لعل الله ينفلكموها ،
فخف البعض ، وتناقل الآخرون ، ومنع الرسول (ص) نفرألم يسلموا
وأرادوا الخروج ، طمعاً في الغنيمة ، واشترط ، لخروجهم ، أن يؤمنوا
بالله ورسوله .

بلغت عدة المسلمين ، الذين خرجوا مع رسول الله (ص) ، ثلاثمائة
 وخمسة عشر رجلاً ، من المهاجرين والأنصار ، معهم فرسان وسبعون
بعيراً . وقد تحركت هذه للقوة ، في اليوم الثامن من رمضان ، في السنة
لثانية للهجرة ، وتقدمت دورية للاستطلاع ، وتبعها كتيبتان : كتيبة
المهاجرين : ويحمل رايتها علي بن أبي طالب ، وعمر بن هاشم ، وكتيبة
الأنصار : ورايتها مع سعد بن معاذ . والرايتان سوداوان . أما المؤخرة
فيقودها قيس بن أبي صعصعة ، بينما يحمل الراية العامة ، وهي بيضاء ،
مصعب بن عمير بن هاشم .

وكان المسلمون يتبادلون ركوب الإبل ، يعتقب الثلاثة والأربعة
منهم البعير الواحد ، وكان للرسول (ص) ، وهو القائد للعام ، بركب
وبسيير ، كواحد منهم تماماً ، على الرغم من أن شريكه في البعير
عرضاً عليه أن يسيرا ، وبركب هو ، فقال : « ما أنتم بأقوى مني ، ولا
أنا بأغنى عن الأجر منكما » .

وصل الخبر إلى المسلمين بخروج قريش من مكة ، لنجدة للقافلة ،
واستشار الرسول للقائد أصحابه ، فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ، ثم قام
المقداد بن عمرو ، وقال : (يا رسول الله ، أمض لما أمرك الله ، فنحن معك ،

والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون » ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكم مقاتلون ، فوللذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى بركم للغماد ، لجالدنا معك من دونه ، حتى تبلغه) . وسكت الناس ، وعاد الرسول يقول : « أشيروا أيها الناس » . وكان يقصد بكلامه الأنصار ، الذين بايعوه يوم للعقبة بيعة دفاع ، لا بيعة هجوم ، فكان محمد (ص) يخشى أن يكون رأي الأنصار للدفاع عن المدينة ، إذا هوجمت فحسب .

وشعر الأنصار بذلك ، فقام سعد بن معاذ ، صاحب رأيهم ، وقال : « لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ » قال « أجل » ، فقال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك ههؤدنا وموائيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض لما أردت ، فنحن معك وللذي بعثك ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته ، لخضناه معك ، وما نخاف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، لعل الله يربك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » . وبدا الانشراح على وجه الرسول (ص) ، بعد ما سمعه ، وقال : (سيروا وأبشروا) .

ارتحل المسلمون حتى كانوا قرب بدر ، وانطلق للرسول بنفسه ، يستطلع أخبار قريش ، حتى علم ، من شيخ من العرب ، أن غير قريش قريبة منه ، وأخفى للرسول شخصيته عن ذلك للشيخ ، زيادة في اللكتمان والحيلة . ثم أرسل للرسول (ص) دورية استطلاع لمعرفة الأخبار عن

رجال قريش، ومواضع نزولهم، وقد نجحت للدورية الأولى - وكان من رجالها على - في الوصول إلى مياه بدر، وعادت بغلامين لقريش، ذكرّا للرسول موضع قريش، وانكرا معرفتهما بعدد المقاتلين،: « كيف ينحرون يومياً؟ » فأجابا: « يوماً تسعاً، ويوماً عشرة » فعلم الرسول ان أعداءه بين التسعمائة والألف. كما عادت للدورية الثانية ببعض المعلومات، من حديث كان يدور بين امرأتين، عند مياه بدر، عرف منه أن قريشاً على بعد يوم، أو يومين، عن موضع بدر.

وعندما رغب الرسول في أن يعسكر، مع المسلمين، في أدنى ماء من بدر، جاءه الحباب بن المنذر، وقال له: « رأيت هذا المنزل منزلاً أنزلكه الله، فليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ » فأجابه الرسول (ص): « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » فقال: « يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزل، ثم نعور ما وراءه من القلب (القلب جمع قليب، وهو للبئر)، ثم نبني عليه حوضاً، فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب، ولا يشربون ». وسرعان ما نفذ محمد رأي الحباب، لما ظهر له من صوابه. ونزل المسلمون في معسكرهم، وامتلكوا مواضع الماء، وأتموا عملية بناء الحوض، وردموا الآبار الباقية، ثم أخذوا قسطهم من الراحة ليلاً، ليكونوا على أتم استعداد في الصباح. كان أبو سفيان، وقد عاد بالقافلة للكبيرة من الشام، يخشى أن

يغنيها محمد وأصحابه ، وقد سمع بخروجهم ، لا اعتراضها . وكانت القافلة من أكبر القوافل ، التي ترسلها مكة عادة : ففيها حوالي ألف بعير ، محملة بالبضائع ، حتى قيل إن معظم أغنياء قريش ، رجالا ونساء ، كانوا قد ساهموا فيها ، وقدرت أثمانها بخمسين ألف دينار . لهذا أرسل أبو سفيان رجلا إلى مكة ، يستنجد بقومه لإنقاذ أموالهم ، ويخبرهم بخروج محمد ورجاله ، ليعترضوا سبيل القافلة . ووصل هذا للرجل ، الموفد إلى مكة ، (وهو ضحضم بن عمرو الغفاري) ، وجعل يصبح : « يامعشر قريش ، اللطيمة . اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أندر كوها ، للغوث ، للغوث . »

ثارت حمية قريش ، وخاف أصحاب الأموال ضياع أموالهم ، وزاد في إثارتهم أبو جهل ، وعامر بن الحضرمي ، أخو عمرو ، والذي قتل في نخله وقيل إنه لم يتخلف من أشراف قريش ورجالاتها إلا أبو لهب ، وقد أرسل عنه رجلا . أما أبو سفيان ، فاستطاع ، بخبرته وحنكته ، أن يتجنب مواقع المسلمين وطرقهم ، وانحرف إلى طريق بعيدة عنهم ، ونجا مع القافلة ، باقترابه نحو الساحل ، ثم انجه مسرعا نحو الجنوب ، وأرسل إلى قريش يخبرها بنجاة القافلة .

أما للقوة المشركة ، فكان رجالها يسبرون غور عدوهم ، وأرسلوا عمير بن وهب الجمحي ، ليتعرف لهم على قوة المسلمين ، فعاد يذكر أنهم حول الثلاثمائة رجل ، لا كمين لهم ولا مدد ، ولا ملجأ لهم إلا

سبوقهم ، فلا يموت للرجل منهم ، قبل أن يقتل رجلاً مثله . وتزد
الناس في متابعة الزحف ، لقتال المسلمين ، بعد أن اطمأنوا على نجاه
أموالهم ، فرجع بنو زهرة إلى مكة ، وصار أبو جهل يزيد في حماس الناس
للقتال ، ويقول : « والله لا نرجع حتى نرد بدرًا ، فنقيم عليه ثلاثة ، ننحر
الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع
بنا للعرب ، وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها . »
وحاول بعضهم أن يشفي أبا جهل عن موقفه ، ويقنعه بالعودة ، فاتهمهم
بالجبن ، وأصر على القتال ، وأثار حمية عامر الحضرمي ، فزع هذا
ثيابه ، وصار ينادي : « واعمره ، واعمره » . وهكذا نجح رأى أصحاب
الزحف ، وسائرهم الآخرون ، لثلاثتهم ، أمام قومهم ، بالخوف
والجبن ، وزحفوا نحو موضع بدر .

أقام الرسول (ص) مقراً للقيادة ، سمي العريش ، في موضع مشرف
على المنطقة ، التي رسمت الخطة على أن يجري للقتال فيها . ثم نظم
الرسول للقائد قواته ، ورتب صفوف المقاتلين ، وشجعهم ، وحرصهم
على الصبر عند اللقاء ، وأمرهم أن يشتروا في مواقعهم ، وأن يصدوا
هجمات المشركين عنهم . وكانت طريقة القتال ، عند المسلمين ، طريقة
للصنف ، بقيادة موحدة ، بينما كان المشركون بدون قيادة ، وكان أسلوبهم
في القتال للكر والفر ، ويقاثلون كأفراد لا كوحدة .

بدأ المشركون بالقتال ، فتقدم منهم الأسد المخزومي ، وأقسم
إلا أن يشرب من حوض المسلمين ، أو ليهدمه ، أو ليموتن دونه ،
فعاجله حمزة بضربة ، أطاحت بساقه ، وبأخرى قضت عليه . فبرز من

المشركين ثلاثة للمبارزة، وهم : عتبة ، وشيبة - ابناربيعة - ولوليد بن
عتبة . وخرج لهم فتية من الأنصار ، فصاح المشركون : « مالنا بكم من
حاجة ، إنما نريد أكفاءنا من قومنا » فأعادهم للرسول (ص) ،
وخرج لهم : حمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث ، بارز حمزة شيبة ، فقتله ،
وبارز علي الوليد ، فقتله . ثم أعانا عبيدة على مبارزة عتبة ، فقتلوه ،
وجرح عبيدة .

ثارت مراجل غضب المشركين ، أمام هذه البداية السبئية
للمعركة ، وقتل أربعة من أبطالهم ، فرشقوا المسلمين بسهامهم ، وهجم
فرسانهم ، وما تنبهوا لخطة المسلمين في القتال : إذ صمد هؤلاء ، ورابطوا ،
حسب أوامر الرسول (ص) ، في مواضعهم ، وأخذوا يصوبون نبالهم
نحو سادات قريش ، تصويباً دقيقاً ، وأخذ للواحد منهم يسقط تلو الآخر ،
ففقدت مراكز القيادة بينهم ، فنزل للرسول (ص) يوحد للصفوف
ويقودها بنفسه ، وهي تقترب من قوات العدو . ولما تأكد المسلمون من
ضعف قوات المشركين ، وبدء انهزامهم ، أصدر للرسول أوامره بمطاردة
الأعداء ، وللشد عليهم ، فكانت هزيمتهم ، وانتصار المسلمين .

كانت غزوة بدر هذه صباح الجمعة ، ١٧ رمضان ، في السنة
الثانية للهجرة ، وانتهت مساءه ، وبقي المسلمون ثلاثة أيام في بدر ، بعد
المعركة ، ثم عادوا إلى المدينة . وقد خسروا أربعة عشر شهيداً ، وخسر
المشركون سبعين قتيلًا ، وأسر منهم مثل هذا العدد .

ويعود انتصار المسلمين ، في معركة بدر ، إلى عوامل عدة ، أهمها :

للقبادة ، وما امتاز به لرسول (ص) ، كقائد ، من مزايا ، جعلت
قيادته الموحدة ، وحسن ضبطه للمسلمين ، من أهم عوامل تنظيم
المعركة ، والإفادة من تلك للفئة للأقلية المنظمة ، إفادة لم تستطع قریش أن
تحصل على ما يشبهها ، على الرغم من كثرة عدد مقاتليها . كما
امتازت قيادة محمد (ص) بحب الجنود لها ، وطاعتهم وأوامرها ،
طاعة اختيارية ، سريعة الاستجابة ، مع تنفيذ تلك الأوامر ، تنفيذاً
دقيقاً ، يمليه الإيمان بمحمد (ص) . كرسول . وامتاز لرسول القائد ، في
موقفه للعصيب ، بصبر نادر ، وقوة للأعصاب عجيبة ، وإيمان بالله
ونصره قوي ، ونزل إلى ميدان المعركة ، بحمس المؤمنين ، وبثبت
قلوبهم ، فازدادوا اندفاعاً واستماتة ، وهم يرون رسول الله بينهم .

بينما لم تكن عند المشر كين قيادة موحدة ، وبين القوم زعماء ، كل
يعتد بنفسه ، في مقدمتهم : أبو جهل ، وعتبة بن ربيعة . ونشأ عن عدم
وجود قيادة موحدة أن كان للقتال عندهم فردياً ، كل من المقاتلين
يستهدف للبطولة للشخصية ، مما أضعف قوتهم ، كمجموعة كبيرة .

وكان المسلمون يقاتلون عن عقيدة ، لا يزعمها شك ولا ارتياب ،
ولا يرجون ربحاً مادياً ، فقد استمر عزمهم على القتال ، على الرغم من
نحابة للقفالة ، وإنما كانوا يطلبون للنصر على من اعتدى عليهم ثلاثة
عشر عاماً في مكة ، أو الاستشهاد والثواب من الله . إنهم يقاتلون
لاستعادة حقوقهم في مكة ، وفي الحصول على حرية عقيدتهم ، لتكون
كلمة الله هي العليا . بينما لم يكن عند عدوهم مثل هذه الأهداف والمثل

للعليا. لقد رفع كل ذلك من معنويات المسلمين، وزادها قوة تشجيع محمد (ص) لهم، قبيل القتال، أو في اثرائه، بعد أن رأوه يدعو ربه، يستنجزه وعده، ويقول: «اللهم هذه قریش قد أتت بخيلائها، تحاول أن تكذب رسولك، اللهم فنصرک، للذي وعدتني»، وازداد المسلمون حماساً، حين سمعوا رسول (ص) يحرّضهم، ويقول: «والذي نفس محمد بيده. لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل، صابراً، محتسباً، مقبلاً، غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة» وفي مثل هذه المواقف نزل قوله تعالى: «يا أيها النبي، حرّض المؤمنين على للقتال، إن يكن منكم عشرون صابرون، يغلبوا مائتين. وإن يكن منكم مائة، يغلبوا ألفاً من الذين كفروا، بأنهم قوم لا يفقهون».

وصلت للقوة المعنوية لدى المسلمين، المقاتلين في بدر، إلى الأوج، فجعلت من الفتية الأحداث صوراً من البطولة الخالدة: فهذا عبد الرحمن ابن عوف يقول: «إني لفي الصف، يوم بدر، إذ للفتت فإذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن، فكأنني لم آمن بمكانهما. إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه: «يا عم، أرني أبا جهل» فقلت: «يا ابن أخي ما تصنع به؟» قال: «عاهدت الله، إن رأيته، أن أقتله، أو أموت دونه» وقال لي الآخر، سرّاً من صاحبه، مثله، فأشرت لهما إليه، فشدا عليه، مثل للصقيرين، فضرباه، حتى قتلاه، وهما أبنا عفراء، وقد استشهد هذان للبطلان في بدر.

هذا، وقد عبأ الرسول للقائد قواته تعبئة منظمة، تناسب الأهداف التي يريدونها، والمنطقة التي يعمل فيها، فسبقته دوريات الاستطلاع

والمقدمة ، كما تأخرت عنه المؤخرة ، لحماية ظهر المسلمين ، وذلك في مسيره نحو بدر . ثم كانت طريقة للصفوف ، التي يقول عنها بعض العسكريين : إنها تؤمن للسيطرة على للقوة بكاملها ، وتؤمن احتياطاً من للصفوف الخلفية ، يستخدمه للقائد ، عند الحاجة ، وأمام للطواريء . وهي طريقة تصلح للدفاع والهجوم . بينما لا نحقق طريقة للكر والفر ، التي استخدمها المشركون ، هذه الميزات . وكان للرسول (ص) برتب بنفسه هذه للصفوف وبعدها ، وأمرهم ألا يحملوا على العدو إلا بأمر منه ، وأن يصدوا هجوم العدو بشباهم ، أول الأمر . وهكذا كان كل ما يجري في المعركة إنما يصدر عن أمر للقيادة ، من تعبئة ، وتنظيم ، ومبارزة ، وثبات ، ثم هجوم ، أنهي المعركة ، وطارده المسلمون فلول قريش . كما أوجد للرسول (ص) للمقاتلين كلمة للتعارف ، كانت في بدر : « أحد ، أحد » ، وذلك ليتم تعارفهم ، حين تشتد المعركة ، ويختلط الحابل بالنابل ، خاصة وأن الطرفين كان أفرادهما في أشكال متشابهة في الهيئة واللباس والسلاح ، فكانت لكلمة للتعارف ، أو للسرا ، أهمية كبيرة .

وكانت غزوة بدر أول نصر حربي كبير ، يحرزه المسلمون ، فقيوت به ثقتهم بأنفسهم ، بعد ثقتهم بالله ، ووعدده لنييه بالنصر المبين . وإذا كانت حادثة الهجرة أكبر نصر سلمي ، في المواقف السلبية ، فإن غزوة بدر كانت أول نصر عسكري ، في المواقف الإيجابية . واعتز المسلمون بهذه للغزوة ، فسموها « غزوة للفرقان » . ولقد تركت هذه للغزوة في

قلوب أهل مكة حزناً وأحقاداً، إن استطاعت أن تكبت عاطفة الألم منها أياماً، فأنها لم تلبث أن تفجرت بالبكاء، وطلب الثأر، لسبعين قتيلًا، جلهم من وجوهها وكبرائها، فرصدت أموال تلك للقافلة للناجية، المسببة للمعركة، لحرب للرسول وأصحابه.

ولم يقف تيار هذا للنصر داخل نطاق مكة، وإنما شاع خبره بين العرب جميعاً، فوطد للمسلمين، في النفوس، للرهبنة والاحترام لقوتهم الناشئة، وكسر شوكة المنافقين في المدينة، بعد ما رأوه من النصر للباهر على قريش القوية.

ظهرت، بعد للنصر مباشرة، مشكلة الأنفال (للغنائم)، إذ أراد كل فريق من المسلمين أن يظهر حقه في الغنيمة، دون غيره: هؤلاء جمعوا للغنائم، وأولئك طاردوا العدو، وآخرون حرسوا مركز القيادة، وقاموا على حراسة الرسول للقائد، وأناس تركوا في المدينة، للقيام بمهمات، كلفوا بها، من قبل للرسول (ص). فعلى من توزع الغنائم؟ أمر محمد (ص) أن تجمع للغنائم، حتى يرى فيها رايه، وقبيل وصول المسلمين إلى المدينة، قسم للرسول الغنائم بين المسلمين على السواء. ويقول معظم كتاب السيرة إن آية توزيع الغنائم نزلت بعد بدر، وبعد توزيع غنائمها. وكان للرسول (ص) قد جعل للفرس حصّة، كما للفارس، وجعل لورثة شهداء المعركة حصّة هؤلاء للشهداء، وجعل حصّة لكل من حضر، أو لم يحضر، المعركة، ممن كانوا قد تخلفوا بأمر من الرسول (ص)، أو لعذر مقبول.

ثم صار توزيع الغنائم ، بعد ذلك ، وفق الآية التكريمة :
« واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة ، وللرسول ، ولذي القربى ،
واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على
عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » .
أما أسرى الغزوة ، فقد أوصى الرسول (ص) صحابته بحسن معاملتهم
فقال « استوصوا بالأسارى خيراً » . ثم بدأت عملية فدائهم ، وكانوا
ثمانية وسبعين أسيراً : فمنهم من اقتدى نفسه بالمال ، فكان يدفع واحدهم
بين ألف وأربعة آلاف درهم . أما الفقراء منهم ، فأطلق سراح بعضهم ،
دون مقابل : مثل للشاعر « أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمعي »
الذي قال للرسول : « لي خمس بنات ، ليس لهن شيء ، فتصدق بي عليهن ،
يا محمد ، وإني أعطيك موثقاً ، لا أقاتلك ، ولا أكثر عليك أبداً » ، فأطلقه
الرسول (ص) ، دون فداء ، أما المتعلمون من فقراء الأسرى ، فقد كلفهم
الرسول (ص) أن يعلم للواحد منهم عدداً من أطفال المسلمين القراءة
والكتابة ، وتم إطلاق سراحهم ، بعد ذلك . وكان عمر بن الخطاب ،
يرى - على خلاف رأي أبي بكر - أن يقتل الأسرى ، وقال : « يا رسول
الله ! هم أعداء الله ، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ، اضرب رقابهم ، هم
رؤوس الكفر وأئمة للضلالة . . . » ولم يقف الرسول وصحابته إلا إلى
جانب للرحمة والعفو ، وعز على عمر أن يقتدي سهيل بن عمرو ، وكان
لسانه شديداً على الإسلام ، فقال للنبي : « يا رسول الله ! دعني أنزع
ثنيي سهيل بن عمرو ، فيدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن

أبدأ . ، فكان جواب النبي دستوراً في معاملة الأسير ، حين قال : « لا مثل به ، فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً » .

ولم يقتل من الأسرى إلا رجلاً ، اعتبرهما النبي مجرمين لا أسيرين ، وهما : النصر بن الحارث ، وعقبة ابن أبي معيط ، وكانا قد ارتكبا في حق المستضعفين من المسلمين . وفي حق الإسلام ، في مكة ، ما يستحقان عليه الموت . فلم يقتلا ، لأنها أسيران ، وإنما قتلا كمجرمي حرب .

صعدت مكة بنجر الهزيمة ، ومقتل كبار قريش ، وجف الدمع في مآقي قريش ، وأصيب أبو لهب بالحُمى ، فمات بعد ستة أيام ، وامتنع الناس من البكاء ، لئلا يشمتوا بهم محمد (ص) وأصحابه ، لكنهم لم يستطيعوا الصبر طويلاً على ذلك ، فانفجرت مكة ، بعد شهر ، بالبكاء والعويل ، وقصت للنساء شعورهن ، وأقن للنواح وللصراخ في كل مكان ، إلا هند ، زوجة أبي سفيان ، التي قتل أبوها ، عتبة ، وأخوها ، الوليد ، وعمها ، شيبه ، في بدر ، ولما قيل لها في ذلك ، قالت : « أنا أبكيهم ، فيبلغ محمد وأصحابه ، فيشمتوا بنا ، ويشمت بنساء بني الخزرج ، لا والله ، حتى أثار من محمد وأصحابه » .

ولما وصل خبر انتصار المسلمين في بدر إلى المدينة ، ضجعت جنابات المدينة بالفرحة ، تملأ قلوب أبنائها المؤمنين . ولكن بعض اليهود والمنافقين حاولوا تكذيب خبر النصر ، ولم يطل الأمر بهم ، حتى طلع الرسول ، بقواته ، عليهم ، فانهارت أكاذيبهم ، حين قال أناس منهم إنه قتل ، وأسقط في أيديهم ، حين رأوا قوة محمد ، وقد عقد لواء النصر لها ، قد ازدادت في المدينة تمكناً ، فأصبحت قادرة على رد كل عدوان ، بجرأة

وقوة . وأخذت تلك الفئات ، من اليهود والمنافقين ، تتآمر على المسلمين ، وقد حرق أغبيظ أكبادها ، لما ناله المسلمون من نصر في بدر . وكان للرسول يعلم حقيقة هذا للنفر من أهل يثرب ، ويراغب حر كائهم ، بحذر وحيلة . لكن انتصار بدر أكسب المسلمين في المدينة قوة وجراة ومهابة ، لم تكن لهم من قبل ، إذ كانوا قبل ذلك يعضون الطرف عن بعض حوادث الاعتداء أو الشتم ، أو الاستخفاف بهم وبدينهم ، أما الآن ، فقد عزموا على أن يردوا كل عدوان بالقوة والحزم ، لو وضع حد لأعداء الإسلام ، من يهود ومنافقين ، ولهذا عمدوا إلى قتل أبي علفك . وهو من بني عمرو بن عوف ، لكثرة طعنه في الإسلام ونبيه ، في شعره وشدة تحريضه لقومه ضد المسلمين ، فقتله سالم بن عمير ، في بيته . كما قتلت عصماء بنت مروان ، لشدة أذاها للإسلام ورسوله . وحين قبل لقاتلها ، عمير بن عوف ، « أنت قتلتها يا عمير ؟ » أجاب ، « نعم ، فوالذي نفسي بيده ، لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربكم بسيفي ، حتى أموت ، أو أقتلكم » .

وكذلك قتل المسلمون كعب بن الأشرف ، الذي أكثر من التحدي - بأقواله وأفعاله - للمسلمين ، حتى انه كان يقول عن مشركي قريش ، الذين قتلوا في بدر : « هؤلاء أشرف للعرب ، وملوك الناس ، والله لئن كان محمد قد أصاب هؤلاء القوم ، لبطن الأرض خير من ظهرها » . وذهب إلى مكة ، وصار يحرض أهلها على الثأر ، ويبيكي أصحاب القلب (المشركين الذين قتلوا في بدر ، ودفنت جثثهم في قلب) .

أما مشر كوا المدينة ، فقد اعتنق معظمهم الإسلام ، بعد ما رأوا من قوة المسلمين ، وانتصار دعوتهم . وكسب المسلمون كسباً آخرأ إذ عقدت أكثر للقبائل ، للنازلة على للطريق بين مكة وللشام ، معاهدات معهم ، فزادت هذه المحالفات من سيطرة المسلمين على هذه المنطقة وتلك للطريق .

— أما لليهود ، فعلى الرغم مما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومحالفات ، فإنهم كانوا يحقدون على الرسول (ص) ، وأصحابه ، وازدادوا حقدأ ، بعد غزوة بدر ، فأخذوا يجاهرون بعدائهم ، ويتعاونون مع المشركين ، ويرشدونهم إلى ما يريدون من أخبار المسلمين . هذا في الوقت الذي كان لا بد للمسلمين من تأمين قاعدتهم في المدينة ، بحيث يطمأن إليها ، في حال هجوم ، يقوم به أعداؤهم ، مشركي مكة ، ولا بد من تطهير المدينة من الجواسيس والخونة ، لتكون قاعدة آمنة من الأخطار للداخلية والخارجية . وقد تأكد المسلمون من نجس لليهود عليهم ، ونقلهم المعلومات إلى قريش . وإظهار العداءة جهراً للمسلمين ، مما يناقض العهود المبرمة معهم ، وكان لا بد من اتخاذ موقف حازم معهم . وجاء للسبب المباشر ، عندما تعرض يهود قينقاع لامرأة مسلمة ، جاءت إلى سوقهم ، ومعها حليها ، تعرضها على صائغ منهم . فأثار عملهم أحد المسلمين ، فقفز على يهودي منهم ، وقتله ، فتكاثر اليهود عليه ، وقتلوه ، وعرفوا ما فعلوا ، فذهبوا إلى حصونهم ، يمتنعون بها ، ويتمحصنون . ولم يكتف هؤلاء اليهود بما فعلوا ، بل أخذوا يستخفون بتهديد محمد لهم ، وطلبه إليهم أن يكفوا أذاهم ، وأن يحفظوا عهدهم ، فكانوا يجيبون :

« لا بغرنك يا محمد ، إنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصببت منهم فرصة ، إنا ، والله ، لئن حاربناك ، لتعلمن أننا نحن للناس . »

بعد هذه المواقف للعدوانية ، كان لابد من الإسراع في سحق هذه للعناصر ، التي تنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على المسلمين . لهذا خرج للرسول (ص) على رأس المسلمين ، وقصدوا منازل بني قينقاع وحصونهم ، وضربوا عليها الحصار خمسة عشر يوماً ، حتى انهارت أعصابهم ، وأصابهم اليأس ، وأعلنوا الاستسلام . وكان الرأي أن يقتلوا ، لما ارتكبوه في حق المسلمين ، لكن (عبدالله بن أبي) أصر في رجائه للرسول أن يعفو عنهم ، وحاول الرسول للتخلص من وساطته ، وعبدالله يقول : « يا محمد ! أحسن في موالي » . وأخيراً رأى محمد أن يحسن إلى (ابن أبي) ، فقال له : « هم لك ، على أن يخرجوا من المدينة ، لا يجاوروننا بها » . فخرج يهود بني قينقاع ، تاركين سلاحهم حتى بلغوا وادي القسري ، فأقاموا هناك فترة من الزمن ، ثم ارتحلوا شمالاً ، حتى بلغوا أذرعات (في شرق الأردن) ، فأقاموا فيها . وبذلك تخلص المسلمون في المدينة من عدو داخلي ، كان أشد خطراً عليهم من أعدائهم خارجها .

وينبغي أن يظن أن طرد لليهود من بني قينقاع كان بسبب اعتدائهم على المرأة المسلمة ، فالواقع أن سلامة المدينة ، ومستقبل المسلمين والإسلام ، كان يقتضي تلك الخطوة ، بعد الخيانات المتكررة والأعمال للعدوانية من قبل هؤلاء لليهود .

ظلت نفوس المشركين تغلي ، غليان الرجل ، لما نالهم من هزيمة

منكرة في بدر ، وأخذوا يعدون للعدة للتأمر ، فقام جمع من بنى عطفان وبنى سليم يتهياً للإغارة على المسلمين ، ولما علم الرسول (ص) بنجرهم ، خرج ، مع مائتين من أصحابه ، حتى وصل إلى منطقة ، تسمى قرقرة للكدر ، ليأخذ عليهم للطريق ، لكنه لم يجد منهم أحداً ، إذ فرت جموعهم ، عند سماعهم بمقدم المسلمين للقائهم ، فجمع الرسول ما وجد من إبلهم ، وقسمها على أصحابه ، وبعد ثلاثة أيام من الإقامة في تلك المنطقة ، عاد المسلمون إلى المدينة .

وكانت هذه الغزوة ، ومشيلاتها ، تستهدف ، إلى جانب القضاء على محاولات لبعض القبائل في الاعتداء على المسلمين ، توطيد نفوذ المسلمين في دائرة واسعة حول المدينة ، والسيطرة على الطريق للتجارية بين مكة وللشام .

كذلك خرج (أبوسفيان) ، على رأس مائتي رجل ، من مكة ، ليفاجيء المسلمين ، في المدينة ، بهجوم يثار به لما أصاب قريشاً في بدر ، ونزل بقوته في أطراف المدينة ليلاً ، وعرف من بعض اليهود أخبار المسلمين ، وتسلل مع رجاله إلى منطقة ، تسمى العريض ، فحرقوا للمسلمين بيوتين ، وبعض أشجار النخيل ، وقتلوا رجلين ، ثم ارتد (أبوسفيان) بقوته مسرعاً نحو مكة ، مكتفياً بما ناله ، خشية أن يخرج المسلمون لهم . وصل الخبر إلى المدينة ، فخرج الرسول (ص) ، على رأس قوة خفيفة ، لمطاردة المشركين ، الذين جدوا في الفرار ، وصاروا يلقون ما يحملون من أكياس المؤونة ، وقد عثر المسلمون عليها في طريقهم .

وكان أكثر تلك الأكياس من السويقي (وهو دقيق الحنطة أو الشعير)
ولهذا سميت للغزوة (غزوة السويقي) . وعاد محمد ، مع أصحابه ، إلى المدينة ،
دون حدوث أي اصطدام .

وقد حدثت بعض الغزوات ، المشابهة لغزوة السويقي في نتائجها ،
مثل : غزوة ذي أمر ، التي خرج فيها الرسول (ص) ، على رأس أربعائة
وخمسين رجلاً ، حين بلغه خبر تجمع بني ثعلبة ومحارب يريدون غزو
أطراف المدينة ، لكنهم فروا ، قبل أن يصل المسلمون . ومثلها غزوة بجران ،
التي خرج للرسول (ص) فيها ، بعد أن بلغه أن جمعاً كبيراً من (بني سليم) ،
بموضع يسمى بجران ، قد تنهياً لقتال المسلمين ، فاتجه نحوهم ، مع
ثلاثمائة رجل ، ولم يحدث اصطدام ، حيث تفرق بنو سليم ، وعاد
المسلمون ، بعد إقامة حوالي شهرين في تلك المنطقة .

لما يئست قريش من استخدام طريق الشام في تجارتها ، بعد أن
سيطر عليه المسلمون ، وحلفاؤهم ، سيطرة كاملة ، اتجهت نحو طريق العراق .
وخبر ما يعبر عن حال قريش حينذاك كلمات قالها أحد الفرشيين في
مكة ، وهو صفوان بن أمية ، وهو يخاطب قومه : « إن محمداً وأصحابه
قد عوروا علينا متجربنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه ، وهم
لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعوه ودخل عامتهم معه ،
فما ندري أين نسلك ؟ وإن أقمنا في دارنا أكلنا رؤوس أموالنا ، فلم يكن
لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام ، في الصيف ، وإلى
الحبشة ، في الشتاء » . فأجابه (الأسود بن المطلب) : « تنكب للطريق على

الساحل ، وخذ طريق للعراق » .

وخرج صفوان بقافلة ، قدر ما تحمله بمائة ألف درهم ، وأخذ معه ، كدليل له في الطريق الجديد ، (فرات بن حيان) ، من بني بكر ابن وائل . ولما وصل الخبر إلى الرسول (ص) ، عن طريق (نعيم بن مسعود الأشجعي) ، الذي كان في مكة ، عند تجهيز تلك للقافلة وخروجها ، أرسل محمد (ص) سرية ، بقيادة (زيد بن حارثة) ، مع مائة رجل ، واعترض طريق القافلة ، ولقيها عند القردة ، ففر رجال القافلة ، وأسر دليها ، وجيء به ، وبالغنائم ، إلى المدينة .

اعتنق الدليل الإسلام . وأفاد المسلمون من الغنيمة ، وحرمت قريش من طريق مكة إلى العراق ، كما حرمت من طريق مكة إلى الشام ، فزاد ذلك في فرض الحصار الاقتصادي عليها ، ولهذا حاولت تحطيم الحصار ، وللأثر لهزيمة ، يوم بدر ، فكانت غزوة أحد .

غزوة أحد

حلت بقريش وتجارها نكبة ، بعد سيطرة المسلمين على الطرق التجارية إلى الشام والعراق ، ولم تكن تجارتها إلى الحبشة والجنوب رابحة ، كتجارها إلى الشمال ، فكان لابد لها من الاصطدام مع المسلمين ، أو الخضوع لهم ولشروطهم ، وأولها حرية للعقيدة . مما يؤدي إلى انهيار وثنية قريش ، وإضعاف مكانتها في مكة . ولم تكن غزوة السويق لتشفى غليلها ، بالنسبة لما أصابها في موقعة بدر ، واستمر استعدادها ،

وقد خصصت أرباح للقافلة للتجارة المشهورة ، لتهيئة المؤونة والسلاح
لمعركة للثأر .

خرج مشركو مكة ، وعددهم ثلاثة آلاف مقاتل ، بينهم مائة
من ثقيف ، ومعهم مائتا فرس ، وثلاثة آلاف بعير ، بقيادة أبي سفيان ،
وقد رافقهم عدد من نسائهم ، وعلى رأسهن هند ، زوج أبي سفيان ،
وكانت من أكثر النساء إصراراً على الخروج ، وحماساً لقتل المسلمين .
وقد سلكت هذه للقوة الطريق نحو المدينة ، ووصلت موضعاً قريباً
منها ، فأطلقت خيلها وأبلها ترعى زرع الأنصار . ثم تابعت زحفها ،
حتى نزلت عند بعض سفوح جبل أحد ، على بعد خمسة أميال من
المدينة .

وكان العباس ، عم النبي ، في مكة ، وكان مازال على دين قومه ،
لكنه كان محباً لابن أخيه ، متعصباً له ، معجباً به ، ذا كراً أنه موقفه منه ،
في بدر وبعدها ، من حسن المعاملة ، فلما رأى جمع المشركين قد تهيأ
للمسير ، بذلك العدد الكبير ، كتب كتاباً يصف فيه جمعهم وعددهم ،
وأعطاه إلى رجل من بني غفار ، يسرع به إلى المدينة ، فوصلها في ثلاثة
أيام ، ودفع بالكتاب إلى محمد (ص) . وأسرع الرسول يتدارك الأمر ،
فأرسل رجلين يستطلعان المواضع ، التي وصل إليها المشركون ، وعرف
منهما أن قوة فريش قاربت المدينة ، ودوابها ترعى زرع الأنصار .

أخذ المسلمون أسلحتهم ، وقاموا على حراسة مداخل المدينة ،
وجمع للرسول (ص) أهل الرأي في المسجد ، ليتشاور معهم في أمر
الدفاع ، ومجابهة الخطر ، وكان رأيهم أن يتحصن المسلمون في مدينتهم ،

فإذا أقتحمها الأعداء ، قاتلوهم داخلها ، خاصة وأن المسلمين على معرفة بمدبنتهم وشوارعها ، بينما يجهل العدو ذلك . وكان كبار الصحابة على هذا الرأي ، لكن فئة أخرى ، ومنهم شباب متحمس ، أبت إلا الخروج ومنازلة العدو ، خارج المدينة ، خاصة وأن العدو وطىء أرضهم ، وأفسد زرعهم .

وهز الحماس والإيمان قلوب جمهور المسلمين ، وتكلم الكثيرون ، مرغبين في الخروج ، طالبيين النصر أو الجنة ، على الرغم من تحذير الرسول (ص) وقوله لهم : « إني أخاف عليكم الهزيمة » . وأصرروا على الخروج ، وتمسك محمد (ص) بمبدأ الشورى ، ونزل عند رأي الكثرة من المسلمين .

خرج الرسول (ص) ، على رأس ألف رجل ، حتى نزل الشيخين (وهو موضع في ضواحي المدينة) ، وهناك لاحظ بن قواته مفرزة ، لا يعرف أهلها ، فسأل عنها ، فقبل له إنهم من اليهود ، حلفاء (عبدالله بن أبي) ، فرفض مساعدتهم ، فعادوا إلى المدينة . كذلك عاد (عبدالله بن أبي) ، مع جماعته ، فبقى النبي في سبعمائة من أصحابه فقط .

نظم الرسول (ص) خطة القتال ، واختار موقعا ، يعسكر فيه رجاله ، على سفح جبل أحد ، جاءعين ظهرهم إلى الجبل ، ووضع خمسين من الرماة ، بقيادة (عبدالله بن جبير) في منطقة مرتفعة ، تسيطر على طريق ، تؤدي إلى خلف قواته ، لحماية ظهر المسلمين من التفاف المشركين ، ولحماية قواته ، إن اضطرت إلى الانسحاب . وأصدر أمره إلى هذه القوة ، فقال : « احموا لنا ظهورنا ، فإننا نخاف أن يجيئوا من

ورائنا . ولزموا مكانكم ، لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نقتل ، فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل ، . ثم رتب للنبي (ص) أصحابه صفوفاً ، وتخبر الأشداء ليكونوا في المقدمة ، وأمرهم ألا يقاتلوا إلا بأمر منه ، وحثهم على الصبر في القتال . وبث الرسول (ص) روح التنافس بين أصحابه في الثبات إبان الالتحام ، فأخذ سيفاً ، وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه » فقام إليه (أبود جانة سمك بن خرشه) وقال له : « وما حقه » يا رسول الله ؟ » فقال للرسول « أن يضرب به العدو حتى ينحني » وكان لأبي دجانة عصاة حمراء ، تسمى بعصاة الموت ، إذا أخرجها ، واعتصب بها ، علم الناس أنه سيقتل ، فتناول السيف من رسول الله (ص) ، وأخرج عصابته ، وعصب بها رأسه ، وصار يتبختر بين الصفين ، فلما رآه الرسول (ص) قال : « إنها لمشبة ببغضها الله ، إلا في مثل هذا الموطن . »

أما المشركون فنظموا صفوفهم : جعلوا (خالد بن الوليد) على اليمين ، (وعكرمة بن أبي جهل) على اليسرة ، وجعلوا اللواء بيد (عبد العزيز طلحة بن أبي طلحة) ، أما للنسوة فصرن يتجولن بين الصفوف ، يضربن بالطبول والدفوف ، وينشدن ، ويحمنن المقاتلين .

بدأت المناوشات بهجوم رجل أوسي مشرك ، ذهب إلى مكة ، وحرّض قريشاً ضد المسلمين ، وهو أبو عامر ، وكان يظن أنه إن نادى قومه لبوه ، فصاح بهم « يامعشر الأوس ، أنا أبو عامر » ، فأجابه الأوس من المسلمين : « لا أنعم الله بك عينا يا فاسق » وهاجموه حتى ارتده واخفق هجوم عكرمة أيضاً ، حيث رشقه المسلمون بالحجارة .

وخرج من المشركين حامل اللواء، طلحة، وهو ينادي : من يبارز؟ فخرج له علي بن أبي طالب، وضربه، فقتله. واندفع أبو دجاجة، فلما لقي أمامه إنساناً إلا ضربه، وشق صفوف المشركين، ورأى شخصاً يحث المشركين على القتال، فحمل عليه، فاذا بصوت امرأة تولول، وإذا بذلك الشخص هند، زوج أبي سفيان، فارتد عنها، ولم يضرب بسيف رسول الله امرأة.

اندفعت قريش إلى القتال، واشتد الطعن والنزال، وكانت (هند) قد وعدت وحشياً الحبشي، مولى (جبير بن مطعم)، خيراً كثيراً، إن هو قتل (حمزة). كما قال له جبير: «إن قتل حمزة، فأنت عتيق». وكان وحشى يحسن قذف الحربة، فصار يترقب حمزه، وسدد نحوه حربته، فمقذف بها، فأصاب حمزة في أسفل بطنه، فمخر شهيداً. ويقول وحشى: «تركته حتى مات، ثم أتيت، فأخذت حربتي، ورجعت إلى المعسكر، وقعدت، ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة أعتقت».

وخسر المسلمون، باستشهاد حمزة، بطلا عظيماً. وعلى الرغم من ذلك، فأنهم اشتدوا في هجومهم، حتى تصدعت صفوف المشركين، وتساقط حملة لواء قريش، حتى قتل منهم تسعة، من بني عبد الدار. وتقهقر المشركون، وأخذ المسلمون يطاردونهم، حتى أبعدوهم عن معسكرهم، ثم عادوا يجمعون للفتنة، وهنا رأى بعض الرماة أن يغادروا مراكزهم، مخالفين أوامر الرسول (ص)، وهم يقولون: «لماذا نقيم هاهنا، وقد هزم الله عدونا؟» ولم يبق منهم إلا للقائد، (عبد الله بن جبير)، مع عدد لا يزيد

على العشرة ، بينما نزل الباقيون ، يسهمون في عملية جمع الغنائم .

انتهز (خالد بن الوليد) ، قائد فرسان ميمنة المشركين ، فرصة تخلي رماة المسلمين عن مواضعهم ، فهاجم بخبله على من بقي ، وأزاحهم ، والتف من وراء المسلمين ، ونادى قومه بمعاودة الهجوم ، فأصبح المسلمون ، وقد أحيط بهم ، وتزعزع مركزهم ، بعد أن تفرقت صفوفهم ، حين انتشروا يجمعون الغنائم . وكانت الحركة مباغتة للمسلمين ، أوقعت بهم خسائر كبيرة ، وتجمع بعض المسلمين حول الرسول (ص) ، وقد استماتوا في الدفاع عنه ، واقترب المشركون من موضعه ، حتى أصابته حجارة بعضهم ، فدمى وجهه ، ثم وقع في حفرة ، كان أبو عامر قد حفرها ، ليقع المسلمون فيها . وقد أخذ (علي) بيده ، فشده منها .

وفي هذا الموقف ، ظهر من حماس المسلمين ، واندفاعهم في صد العدو ، ومنع الأذى عن رسولهم ، ما يندر مثله : فوقف (أبو دجانة) بحمي يحسمه رسول الله ، ويتلقى النبأ عنه . ووقف (سعد بن أبي وقاص) يرمي بالنبال ، إلى جانب محمد (ص) ، وبرزت (أم عمارة نسيبة الخزرجية) ، التي كانت من أول للنهار تحمل وعاء تسقي منه المسلمين وجرحاهم ، فلما رأت الخطر ، المهدق برسول الله (ص) ، ألقت سقاءها ، وتناولت سيفاً ، وأخذت تلدود عن محمد (ص) ، حتى أدمتها الجراح .

نجح للرسول وصحبه في شق طريقهم إلى سفح جبل أحد ،
وصعدوا إحدى روابيه ، وخفت حدة القتال ، بعد أن صاح أحد
المشركين بأن محمداً قد قتل ، وكأن هذا الخبر قد شفى غليل قريش ،
وهدأت حدة الهجوم . ثم تنبه بعضهم إلى نجاة الرسول (ص) ، فتبعه
(أبي بن خلف) ، وهو يقول : « أين محمداً ؟ لا نجوت إن نجى » .
وأقبل مسرعاً على فرسه ، فتناول الرسول (ص) حربة ، وسددها
إليه ، فطرحته أرضاً ، وتدحرج على السطح ، ولم يلبث أن مات .
حاول (خالد بن الوليد) ، مع فرسانه ، صعود الجبل ، ومطاردة
محمد وصحبه ، للقضاء عليهم ، فتصدى له (عمر بن الخطاب) ، مع فئة من
الصحابة ، وردوه على أعقابهم . وقد أنهك التعب المسلمين ، حتى صلى
للنبي قاعداً ، وصلى المسلمون قعوداً ، وراءه .

انطلقت نسوة قريش ، في نشوة النصر ، يمثلون بقتلى المسلمين :
يقطعن الأنوف والآذان ، كما بقرت هند بطن حمزة ، وأخرجت كبده
فلاكنها بأسنانها . وقبل أن تنسحب قوات قريش من ميدان المعركة ،
وقف أبوسفیان ينادي ويقول ، موجهاً كلامه للمسلمين : « أفبكم محمد ؟ »
فلم يجبه أحد ، فقال : « أفبكم ابن أبي قحافة ؟ » فلم يجيبوه . فقال :
« أفبكم عمر بن الخطاب ؟ » فلم يجيبوه . وكان يقدر أن أبرز وجوه
الإسلام ، يومئذ ، هي هذه الوجوه ، وأصحابها دعائمه
للقوية . وأضاف أخيراً : « أما هؤلاء فقد كفيتموهم » . ولكن (عمر بن
الخطاب) لم يتمالك نفسه ، فرد عليه ، وقال : « يا عدو الله ، إن للذين

ذكرتهم أحياء ، وقد أبقي الله لك ما يسوءك ، وإن محمدا بسمع
كلامك الآن . » وصاح أبو سفيان : « يوم بيوم بدر ، الموعد للعام
المقبل » . فقال للرسول (ص) لأحد أصحابه . « قل نعم ، هو بيننا وبينك
موعد . »

انصرف قريش ، بعد أن دفنت قتلاها ، وعددهم اثنان
وعشرون رجلا ، ونزل المسلمون لدفن قتلاهم ، وعددهم سبعون
رجلا . ووقف للرسول (ص) أمام جثة عمه ، حمزة ، وقد شوهدت ،
ومثل بها ، فبحزن عليه أشد الحزن ، وقال : « لن أصاب بمثلك أبدا ،
ما وقفت موقفا قط أعيظ إلى من هذا » . وأضاف : « والله لئن أظهرنا الله
عليهم ، يوما من الدهر ، لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب » ،
فأنزل الله عليه قوله : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ،
ولئن صبرتم ، فهو خير للصابرين . واصبر ، وما صبرك إلا بالله ، ولا
تحزن عليهم ، ولا تلك في ضيق مما يمكرون » . وصبر للرسول ، ومنع
عن التمثيل بالقتلى . ثم سجد جثة عمه ببرده ، وصلى عليه ، ودفن
بقية القتلى ، حيث لقوا مصارعهم .

أراد للرسول (ص) أن يخفف من وقع الهزيمة في المدينة ، خاصة
أمام اليهود والمنافقين ، وأن يعيد للمسلمين هيبتهم ، فقام بعمل
جرىء ، في اليوم الثاني من موقعة أحد ، وذلك يوم الأحد ، ١٦

شوال ، في السنة الثالثة للهجرة : فاستنفر المسلمين ، ودعاهم إلى الخروج ، لمطاردة المشركين ، على ألا يخرج إلا من حضر غزوة أحد .
وفعلا خرج للرسول (ص) ، على رأس هذه المجموعة ، المشتعلة حماساً ، والمتدفقة إيماناً ، حتى نزل موضعاً ، على مسافة ثمانية أميال من المدينة ، ووصله الخبر أن قريشا قررت للرجوع إليه ، فصمم على لقائهم ، وبقي ثلاثة أيام إلى أن تأكد من لحاق المشركين بمكة ، وخوفهم من العودة ، فعاد محمد (ص) إلى المدينة ، وقد أعاد كثيراً من الهبة للمسلمين بعمله هذا .

أما أبو سفيان ، فقد بلغه ، وهو في طريق العودة إلى مكة ، خبر خروج محمد وأصحابه من المدينة ، وأن قوات جديدة قد التحقت به ، وسمع وصفا لهذه القوة ، من (معن الخزاعي) ، وكان ما يزال على الشرك ، فقال لأبي سفيان : « إن محمداً قد خرج ، في أصحابه ، يطلبكم ، في جمع لم أر مثله قط ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه ، وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقاً ، ومنكم للشار طلباً » . وخاف أبو سفيان أن يخسر ما كان قد كسبه من عز للنصر في أحد ، فأسرع بالسير نحو مكة .

أما للرسول (ص) ، فقد واجه ، بعد غزوة أحد ، مشاكل عديدة ، داخلية وخارجية ، وكان لابد من التغلب عليها ، لإعادة الموقف إلى ما كان عليه ، قبل أحد ، بالنسبة للمسلمين : ففي الداخل ، كشف

المتأفكون عن وجوههم ، وعرفت حقيقةتهم ، قبيل المعركة ، حين تخلوا
عن المسلمين ، وعادوا إلى المدينة . وكذلك تجرأ لليهود على المسلمين ،
وفكروا في التآمر على محمد وصحبه . وفي الحارج ، أذاع المشركون
من قريش ، بين للعرب ، أنباء انتصارهم على المسلمين ، وقاموا بدعاية
واسعة ، لإضعاف شأن المسلمين في نظر القبائل . وكذلك تجرأت بعض
القبائل المجاورة على للتفكير في غزو المسلمين ، ونهب أموالهم . وكان
ذلك كله يقتضي محمداً أن يقوم بحركة تطهير واسعة ، وتنظيم جديد ،
و ضرب بقوة على أيدي المتآمرين وللطامعين ، ولهذا نظم بعض السرايا
والدوريات ، لتحقيق هذه الأغراض :

سرية أبي سلمة : بعد شهرين من أحد ، بلغ للرسول (ص)

أن طليحة وسلمة ، ابني خويلد ، يحرضان قومهما ، من بني أسد ، على
غزو المدينة ، ونهب أموال المسلمين ، فقرر أن يضرب للعدو قبل أن
يصل إلى هدفه ، فشكل دورية قتال ، من مائة وخمسين مقاتلاً ، بقيادة
(أبي سلمة ابن عبد الأسد) ، ومعه كبار الصحابة ، أمثال : (أبي عبيدة ابن
الجراح) ، (وسعد بن أبي وقاص) . وأمرهم بالسير ليلاً ، والاستخفاء نهاراً ،
وسلوك طرق غير مطروقة ، ليلبغوا بني أسد ، ونجحت الخطة نجاحاً
باهراً ، وولى بنو أسد الأدبار . فألف (أبو سلمة) من قواته دوريتين
طاردتا للعدو ، ورجعتا بالنصر والغنائم ، ثم عادت هذه للسرية إلى
المدينة .

سرية عبد الله بن أنيس : قامت هذه السرية على رجل واحد ،

هو (عبد الله بن أنيس) ، وذلك ان للرسول (ص) سمع ان (خالد بن سفيان

المدني) يقوم بحشد قوة كبيرة من الأعراب ، لغزو المدينة . فأرسل
(عبدالله) يستطلع له الأخبار ، وسار (عبدالله) حتى لقي (خالد بن سفيان) ،
فاستدرجه بالكلام ، حتى عرف حقيقة نواياه ، وتأكد أنه كان يجمع
الأعراب لحرب محمد ، وغزو المدينة . وحانت لعبدالله فرصة ، تمكن
فيها من قتل خالد ، والعودة إلى المدينة ، وتفرق جمع الأعراب ، بعد
أن أنهارت القيادة ، بمقتل خالد .

غزوة بني النضير : قصد الرسول منازل يهود بني النضير ، في

ضواحي المدينة ، ليستعين بهم في دفع دية قتيلين ، معاهدين للمسلمين ،
من بني ع-امر ، قتلها أحد المسلمين خطأ . وقد أظهر لليهود الرضى في
سداد ما عليهم ، وحلس محمد (ص) ، أمام أحد بيوتهم ، مع أصحابه ،
وبينهم أبو بكر وعمر وعلي ، بينما كان اليهود يتآمرون على قتله ، حيث
اتفقوا على أن يصعد أحدهم ، فيلقي بصخرة عليه ، فيقتله . وفعلوا
تعهد منهم (عمر بن جحاش) أن ينفذ الجريمة . وأحسن للرسول بالمؤامرة ،
وأوحى إليه بها ، فانصرف ، دون أن يخبر أحداً . ولما علم أصحابه
بذهابه إلى المدينة ، لحقوا به ، فأخبرهم بالمؤامرة لليهودية .

استدعى محمد (ص) أحد رجاله ، وبعث به إلى يهود بني النضير ، يطالبهم
بالخروج من البلاد ، بعد أن نقضوا للعهد ، وهموا بقتل النبي (ص) ، ومن
يرى منهم بعد عشرة أيام . تضرب عنقه . وقرر اليهود الجلاء ، بعد
أن عرفوا جريمتهم . ولكن المنافقون ، وعلى رأسهم (عبدالله بن أبي) ،
أخذوا يحرضونهم على الثبات ، ويتعهدون بنصرتهم على محمد وصحبه .

فاطمأن لليهود إلى المنافقين ، وعزموا على البقاء والقتال ، واخذوا
محصنون منازلهم ، ويجمعون الحجارة ، ويقيمون المتاريس ، وجمعوا
أرزاقهم ومؤونتهم . ثم أخطروا للنبي (ص) بأنهم لن يخرجوا ،
وليفعل ما بدا له .

سار الرسول (ص) ، على رأس المسلمين ، ف ضرب الحصار على
منازل بني النضير ، خمسة عشر يوماً ، وضيق الحصار عليهم ، يوماً بعد
يوم . ثم قطع المسلمون نخيلهم وأحرقوه ، لإضعاف حماسهم في القتال ،
بعد خسرانهم ما يملكون ، فأصابهم اليأس ، وخابت آمالهم في (عبدالله
ابن أبي) ، وصحبه ، المنافقين . وطلبوا من محمد (ص) أن يعطيهم الأمان على
أموالهم ودمائهم وذراريهم ، ليرحلوا عن المدينة ، فأجابهم الرسول
(ص) إلى طلبهم . وحملوا ما سمح لهم بحمله ، وأقام بعضهم في خيبر ،
وسار آخرون إلى الشام . وغنم المسلمون كثيراً من الغنائم . أما الأرض ،
التي كان اليهود عليها ، فوزعها الرسول (ص) على المسلمين ، وبخاصة
اولئك الذين كانوا في حاجة . واستراح المسلمون من بطن من بطون
اليهود ، كان يتحين للفرص للقضاء على الإسلام ورسوله ، وإثارة
الفتن ، وتحريض المشركين ضد المدينة ، وكان ذلك في السنة الرابعة
للهجرة (٦٢٦م) :

وبعد مرور عام على غزوة أحد ، تذكر الرسول (ص) كلمة أبي
سفيان ، يواعد فيها المسلمين ، ويقول ، في نهاية الموقعة : « يوم بيوم بدر ،

والموعد للعام المقبل»، وكان ذلك للعام عام جذب، ف دعا الرسول
(ص) أصحابه للخروج، فصعب ذلك على بعضهم، ونشأ قلوباً، فأقسم
محمد (ص) أنه يخرج إلى بدر، ولو لم يخرج معه أحد، وزال للتردد
من نفوس المسلمين، عندما رأوا عزم رسولهم على المضي، وخرجوا
معه إلى موقع بدر، وعسكروا هناك، ينتظرون قريشاً. أما قريش
فقد خرج منها ألفان من المقاتلين، وعلى رأسهم أبو سفيان، وبعد
مسيرة يومين، خاف أبو سفيان أن تخسر قريش ما كسبته من سمعة،
بعد انتصارها في أحد، فنادى في الناس: «يامعشر قريش، إنه
لا يصلحكم إلا عام خصيب، وإن عامكم هذا جذب، وإني راجع
فارجعوا. وفعلاً رجع مقاتلو قريش إلى مكة، مفضلين عدم
الاصطدام مع المسلمين. وعاد محمد مع صحبه، وكان لخروج
المسلمين في بدر أثر كبير في إزالة آثار موقعة أحد من النفوس.
خرج الرسول (ص)، بعد ذلك في بعض الغزوات، لمهاجمة
الحشود، التي كانت تصل أخبارها إلى المدينة، فيسرع محمد
(ص) إليها، قبل غزوها للمدينة: كغزوة ذات الرقاع، وغزوة دومة
الجندل (واحة الجوف حالياً)، وإذا دلنا هذه للغزوات على شيء
فإنما تدلنا على يقظة الرسول (ص)، وحذرهم من أن يؤخذ المسلمون
على غرة.

غزوة الا حزاب (الخندق) سنة ٥ هـ

كان لليهود يقدرون خطر قوة المسلمين عليهم ، وخطر انتشار الإسلام على كياناتهم ، خاصة بعدما رأوه من إخفاق محاولتهم للتآمر على الرسول (ص) ، وعلى المسلمين ، مما أدى إلى طرد بني قينقاع وبني النضير . وكان يهود بني النضير قد عزموا على الانتقام ، لعلمهم يستطيعون العودة إلى المدينة ، فعمدوا إلى تأليب للعرب ، وتحريض قبائلهم ضد الرسول (ص) . وأرسلوا ، لتحقيق غرضهم ، وفداً إلى مكة ، من رجاله : (حيي بن أخطب) ، و(سلام بن أبي الحقيق) ، وغيرهما ، ووجد تحريضهم لقريش صدى في نفوس زعمائها ، واعتقدوا أن الفرصة قد حانت ، للقضاء على الإسلام والمسلمين نهائياً ، في المدينة ، بالتعاون مع لليهود . وشجعهم على ذلك ما أصابوا من المسلمين يوم أحد ، وأخذ بعض المشركين يستفسرون من لليهود عن رأيهم في دين محمد (ص) ، فقال بعضهم لليهود : « أفديننا خير أم دينه ؟ » وكان جواب لليهود : « بل دينكم خير من دينه ، وهكذا لم يتورع لليهود ، على الرغم من اعتناقهم لدين يقوم على للوحدانية ، عن تفضيل للشرك وللوثنية على دين للتوحيد ، مدفوعين بأحقادهم وأذانياتهم ، ضد الإسلام ورسوله (ص) :

تم الاتفاق بين قريش واليهود على حرب محمد (ص) ، وأسرع للوفد لليهودي لتأليب قبائل أخرى من للعرب . فذهبوا إلى عطفان ،

والله بطون من بني متهمة وفيلارة مرسليم ، وأسدي ، وهيراها من القبائل ،
لاني يتوقعون منها للعون وللتأييد ، فحرضوهم ، وذكروا لهم اتفاقهم
مع قريش على حرب محمد . وهكذا استطاع لليهود حشد عدد كبير
من أعداء المسلمين ، في حلف مشترك ، لمهاجمة المدينة . وخرج أبو
سفيان ، على رأس حوالي خمسة آلاف مقاتل من قريش ، وانضم إليهم
مثلهم من القبائل الأخرى ، فأصبح جيش الأحزاب حوالي عشرين
آلاف مقاتل .

وصل خبر مسير هذه الألوف من المقاتلين إلى المدينة ، وتدارس
الرسول الأمر مع أصحابه ، وكان الرأي أن يتحصنوا بالمدينة ، وأشار
(سلمان الفارسي) على الرسول أن يحفر خندقاً حول المدينة ، يحول دون
اقتحامها ، وأقر الرسول رأيه ، وبدأ العمل في حفر الخندق ، وأخذ
الرسول الكريم (ص) يحفر مع أصحابه ، ويحمل للتراب ، ويشجع على
العمل ، وجعلت الحجارة من طرف الخندق للداخلين ، أي من جهة
المسلمين ، لتستخدم كسلاح ؛ يقذف بها في وجه العدو ، وأخلت
المساكن ، التي تقع خارج الخندق ، وحصنت المنازل للقريبة من مدخل
المدينة . وكان الخندق شمال المدينة ، يمتد بين جبل صاع وحرّة المدينة ،
وهي المنطقة المكشوفة ، التي يسهل اقتحامها . أما جهات المدينة الأخرى
فتحميها أشجار النخيل ، وبعض البساتين والمنازل المحصنة ، مما يضطر
قريشا إلى مهاجمة المدينة حتماً من شمالها ، وقد تم حفر الخندق في ستة

أيام ، وكان للعمل يستمر طيلة ساعات النهار بتنظيم رائع ، وإشراف من للقائد العام ، رسول الله (ص) . واخذ المسلمون مواضعهم وراء الخندق ، وعلى المرتفعات ، وجمعت النساء والأطفال في دور قوية التحصين ، داخل المدينة . وكان الخندق مفاجأة لقريش ، واخذ المقاتلون يترشقون بالنبال . وعسكر الرسول (ص) ، مع ثلاثة آلاف مقاتل ، وراء الخندق ، وتحمس بعض المشركين ، ومنهم : (عكرمة بن أبي جهل) ، و (عمرو بن عبد ود) ، فعبروا الخندق على خيولهم ، من منطقة يضيق عرض الخندق فيها ، فقطع المسلمون طريق العبور ، ومنعوا استمراره ، وقتلوا ثلاثة من المشركين ، بينهم (عمرو بن عبد ود) ، والذي قتله (علي بن أبي طالب) . وعاد من نجا من فرسان قريش إلى معسكره . وحاول المشركون القيام بهجوم عنيف ، صده المسلمون . ودار للقتال طول النهار ، ولم ينجح هجوم المشركين .

اشتد الخوف بالمسلمين ، خاصة عندما نقض بنو قريظة عهدهم مع الرسول (ص) ، وقد أرسل للنبي (ص) من أصحابه : سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد ، مع أناس آخرين ، ليتأكدوا من الخبر ، وعادوا يؤكدون خيانة يهود بني قريظة لعهودهم . اشتد للبلاء على المسلمين ، قرابة شهر ، والحصار قائم ، وأرسل لليهود رجلا منهم ، يستطلع الأخبار ، فتسلل إلى منطقة الدور ، حيث يتجمع للنساء والأطفال ، ويظهر أنه كان يريد معرفة مواضع للضعف ، ليقوم قومه بهجوم مباغت على بيوت المسلمين . لكن امرأة مسلمة . هي (صفية بنت عبد المطلب) ،

شاهدته، وعرفت أضراره، فأصابته بضربة حمود، فقتلته، وقضت بذلك ما يبيته مع قومه. وصل للضيق بالمسلمين إلى الحد الذي لا يحتمل، حتى أن الرسول (ص) حاول تخفيف الشدة، بمفاوضة زعماء عطفان، على أن يكون لهم ثلث ثمار المدينة، مقابل انسحابهم. لكن زعماء الأنصار اقترحوا على رسول الله (ص) ألا يفعل، فنزل عندهم، واستمرت المناوشات، وزاد للشتاء، ببرده وعواصفه، الحالة سوءاً وعذاباً. وفي ذلك الوقت عرض (نعيم بن مسعود) على الرسول (ص) أن يؤدي خدمة للمسلمين، وكان قد أعلن إسلامه، دون أن يدري بذلك أحد، فقال له الرسول (ص): «إنما أنت رجل واحد، فخذ ما استطعت فإن الحرب خدعة». ونجح (نعيم) في إلقاء الخلاف بين بني قريظة وقريش، فأوهم يهود قريظة أن قريشاً سترحل عن قريب، تاركة الفرصة لمحمد لينتقم منهم، فليأخذوا رهائن من قريش، لضمان بقائهم إلى جانبهم. ثم أوهم قريشاً أن يهود قريظة قد اتفقوا مع محمد (ص)، وصالحوه على أن يقدموا له عدداً من زعماء قريش ليقتلهم، عربوناً لهذه الصداقة والمصالحة. وقد ارتاب كل من الطرفين في الآخر، وضعفت المعنويات، واشتدت للرياح، واقتلعت الحيام، فرحلت قريش، وتفرقت جموع الأحزاب، دون أن يصيبوا من المسلمين ما يأملون، وكانت خسارة المسلمين ستة شهداء، وخسارة المشركين ثلاثة قتلى.

لعبت عوامل عدة في إخفاق المشركين، ونجاة المدينة، في هذه الفترة، التي كانت تهدد الإسلام في عقر داره، ولو نجحت لاستأصلت

شأفة أبنائه ، وأهم عوامل نصر للمسلمين :

أولا : قيادة للرسول (ص) الموحدة ، وفقدان مثل هذه للقيادة في معسكر الأحزاب ، حتى كان لكل مجموعة قبلية قائد منها ، يطلب للبطولة لنفسه ، وقبيلته ، فحسب .

ثانيا : الخندق والدور الكبير الذي قام به للحيلولة دون تدفق الأعداء إلى داخل المدينة .

ثالثاً : قسوة للطبيعية ، ببردها وعواصفها التي ساعدت ، على إضعاف معنويات المشركين .

رابعا : فقدان الثقة بين الأحزاب ، واختلافها في أهدافها ومقاصدها .

خامسا : صبر المسلمين وثباتهم ، وتحملهم الأذى والعذاب ، طول مدة الحصار .

غزوة بني قريظة

كان لابد من تصفية الحساب مع بني قريظة ، الذين خانوا عهدهم مع المسلمين ، وأرادوا للغدر بهم ، في أشد أوقات محنتهم ، في أثناء حصار الأحزاب لهم . وكان بنو قريظة بذلك يشكلون خطرا داخليا ، يهدد كيان الإسلام في المدينة ، ولهذا ما أن رحلت جموع الأحزاب إلا وعاد للرسول (ص) إلى المدينة يدعو المسلمين ، في نفس اليوم ، لغزو بني قريظة ، وقد بعد حلفاؤهم المشركون . وخرج

لرسول (ص)، على رأس ثلاثة آلاف مقاتل ، وقبل حلول ظلام ذلك اليوم ، كانت حشود المسلمين تحاصر بني قريظة في حصونهم على الرغم من تعب المسلمين الحصار وبرودة الجو ، واستمر الحصار خمسا وعشرين ليلة جرى خلالها تراشق بالنبال والحجارة ، ولما اشتد الحصار باليهود ، قبلوا الاستسلام ، على أن يحكم في أمرهم سيد الأوس ، (سعد بن معاذ) ، وقبل للرسول (ص) حكم سعد .

أخذ (سعد) الموائيق من الطرفين ، على أن ينزلوا عند حكمه . ونزل بنو قريظة ، ووضعوا سلاحهم ، فكان حكم سعد أن يقتل للرجال ، وأن يغم المسلمون جميع ما يملك لليهود ، وأن تسي للنساء والأطفال . وكان سعد يقدر أنه لو نجحت مؤامرة بني قريظة ، لكانت نهاية المسلمين هي نفس هذه النهاية ، فحكم عليهم بمثل ما كانوا سيفعلون بالمسلمين . وقتل رجال بني قريظة ، إلا أربعة منهم ، اعتنقوا الإسلام . وقتلت امرأة واحدة ، لجريمة ارتكبتها . وذلك أنها ألفت برحى على أحد المسلمين ، وهو (خلاد بن سويد) ، فقتل ، فكان قتلها به .

غزوة بني المصطلق ، سنة ٦ هـ

وكان لهذه الغزوة أهمية خاصة ، لما رافقها من بعض الحوادث ذات الأثر في الجماعة الإسلامية . وللدافع لهذه الغزوة اجتماع بني المصطلق ، وهم من خزاعة ، على حرب المسلمين ، بزعمهم (الحارث بن أبي ضرار) . وقد خرج للرسول (ص) ، قبل أن

يقوم هؤلاء بالمهجوم ، فهزمهم ، عند ماء يسمى المريسيع . وغنم المسلمون كثيراً من إبلهم ، وأسروا بعض نسائهم ، وكان في عداد للقتلى سيد للقوم ، الحارث .

وحدث خلاف في أثناء عودة المسلمين ، بين مهاجر وأنصارى ، وصاح كل منهما بأصحابه ، وكادت تقع للفتنة ، التي استغلها راس المنافقين ، (عبد الله بن أبي) ، وتكلم بكلام يمدد فيه بالمهاجرين . وقال : « لقد كاثرنا المهاجرون في ديارنا » . وأكثر من الهجوم بكلامه عليهم . ووصل ذلك إلى رسول الله (ص) ، وهاج له عمر ، حتى اقترح أن يقتل ، وأبى ذلك محمد (ص) ، وجاء عبد الله إلى الرسول ينفي ما نسب إليه ، وقضى الرسول (ص) على الفتنة في مهدها ، وحذر المسلمين من دعوى الجاهلية ، وقد نزلت في هؤلاء المنافقين الآية : « يقولون لنرجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، والله العزة ولسنوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » . وقد ظن البعض أن النبي سيقتل (عبد الله بن أبي) ، وأسرع ابنه (عبد الله بن عبد الله بن أبي) ، وكان حسن الإسلام إلى الرسول ، يقف موقفاً نادراً في تاريخ الإسلام ، ويقول : « يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل أبي ، عبد الله بن أبي ، فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً ، فمرفني به ، فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله ، لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني ، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي انظر إلى قاتل أبي ، يمشي بين الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلاً . ومنأ

بكافر ، فأدخل للنار » . فهو في موقفه هذا ، لا يرجو رسول الله أن يمنع عن تنفيذ ما يأمره الله به ، أو أن يعطل حداً من حدود الإسلام ، وإنما يخشى من نفسه للشار مما يتنافى وما في قلبه من الإيمان ، فكان كل رجائه أن ينفذ بيده أمر للرسول (ص) بأبيه . وكان جواب الرسول (ص) لعبد الله بن عبد الله : « انا لا نقتله ، بل نترفق به ، ونحسن صحبته ، ما بقي معنا » .

ومن الحوادث التي تبعت غزوة بني المصطلق ، ما كان من حديث الإفك ، واتهام بعض دعاة السوء من المنافقين عائشة ، أم المؤمنين ، بسبب تأخرها عن للقافلة ، وكانت قد صاحبت رسول الله في هذه الغزوة ، وسار الناس ، وهم يعتقدون أن عائشة في هودجها ، بينما هي بعيدة عنهم في بعض حاجتها ، وبقيت عائشة في مكانها ، منتظرة عودة الباحثين عنها . ومر بها أحد المتخلفين من الركب ، وهو (صفوان بن المعطل السلمي) ، فعرفها ، وأناخ لها بعيره ، وابتعد ، فركبت ، ومساق للبعير ، مسرعاً ، ليلقى للقوم ، ودخل المدينة ، في وضع للنهار . وبزلت عائشة إلى بينها . ولم يكن هناك في الأمر ما يريب ، ومضت أيام دون سماع أي خبر حول الموضوع ، إلى أن تناولته السنة بعض المنافقين ولعبت للنساء ، ومنهن أخت لزينب بنت جحش (واسمها خنثى) ، فأرادت هذه أن تمس عائشة بما يفسد عليها قلب الرسول (ص) ، غيرة منها ، لصالح أختها ، زينب ، زوج الرسول . وقد صدق بعض المسلمين حديث الإفك ، وأصاب الرسول (ص) من ذلك حيرة ، وأذى ، إلى أن نزلت آيات القرآن الكريم ، تبرىء عائشة مما اتهمها به المرجفون

المنافقون ، وكانت ثبرثة عائشة في سورة النور ، ومنها قوله تعالى : « إن
للذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شر لكم ، بل هو خير لكم ،
لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم
له عذاب عظيم » .

ومما أعقب غزوة بني المصطلق كذلك ، زواج رسول الله (ص) من
إحدى سبايا هذه الغزوة ، وهي (جويرة بنت الحارث) ، سيد للقوم ، وقد
طلبت من الرسول مالا ، يساعدها في فك أسرها ، فقدمه لها . ثم عرض
عليها للزواج ، ليتألف قلبها ، وقد مات أبوها بسيف المسلمين ، وخشية
أن تجتمع حولها فلول قومها ، فينفتح بذلك باب جديد للشر والقتال ،
فقبلت جويرة ، وتزوجت برسول الله (ص) ، فأعتق المسلمون ما بيدهم
من أهل بيتها ، إكراماً لها ، بعد أن أصبحت زوجة لرسولهم الكريم .

صلح الحديبية (سنة ٦ هـ)

خرج الرسول (ص) في السنة السادسة للهجرة ، يريد قضاء
العمرة في مكة (زيارة للكعبة ، وللطواف ، وللسعي) في غير موسم
الحج) ، ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه . ويظهر أن الرسول (ص) أراد
بعمله هذا أن يظهر لقريش خاصة ، وللعرب عامة ، أنه مازال يقدس
الكعبة ، ويحج إليها أتباع دينه ، فما تزال مكانتها في الإسلام مامية
مقدسة .

خرج للرسول ، في شهر ذي القعدة ، وهو من الأشهر الحرم ،
ليعلم للناس أنه خرج زائراً ، معظماً للكعبة ، ولم يكن غازياً ، ولا فاتحاً .
وأراد بخروجه ، وعمرته هذه ، أن يطلع أهل مكة على موقف المسلمين
من كعبتهم ، وتعظيم الإسلام لها ، كما يريهم إخوانهم المهاجرين ، وإشراقة
الإيمان على وجوههم ، لعلهم يذنون بعض أحقادهم ، وتتغلب في
نفوسهم عواطف القربى ، وصلات الرحم . وإذا قاتلت قريش
فسوف تسيء إلى سمعتها ، ونحسر احترام للعرب لها ، لقتالها قوماً
جاءوا للعمرة ، في للشهر الحرام ، في البلد الحرام . ولم يكن مع
المسلمين إلا سيوفهم ، في أغمارها ، واتجهوا محرمين (لا بسين لباس
الإحرام) ، على بعد يسير من المدينة ، وقد سبقهم من يستطلع لهم أخبار
قريش ، وجاء الخبر بأن قريشاً ، وبعض حلفائها ، أجمعوا على صد
المسلمين ، ومنعهم من دخول مكة ، ولو أدى الأمر للقتال .

خشيت قريش أن تكون خدعة من المسلمين ، يريدون بها احتلال
مكة ، وعندما علمت أن محمداً جاء للعمرة فقط ، رفضت ، لئلا
يقال بين العرب إن محمداً دخل مكة عنوة ، ولهذا عازمت قريش على
منع محمد وأصحابه من دخول مكة ، ولو كان الأمر عمرة حقاً . وتهيأت
قوة من الفرسان والمشاة ، لتحقيق أهداف قريش ، وهاجم بعض
المتحمسين من شباب المشركين معسكر المسلمين ، قرب مكة ، فأسروا ،
ولكن الرسول أطلق سراحهم ، إثباتاً لنواياه السلمية ، في زيارته لمكة .

وكان المسلمون قد عسكروا عند الحديبية ، (على بعد ثلاثة أميال من شمالي مكة) ، وجاءت عيون قريش ، ورأت مواضعهم ، وعادت تخبر للقوم أن المسلمين لا يعتزمون قتالا . وجاء إلى الرسول من حادثه ، باسم قريش ، وعاد معتقداً في حسن نية محمد (ص) وأصحابه ، في عمرتهم هذه . وأرسل الرسول (ص) رجلاً ، يبلغ قريشاً رغبة المسلمين في للعمرة ، فعقر المشركون ناقته ، وكادوا يقتلونه ، ثم أرسل محمد (ص) عثمان بن عفان ، وفأوض للقوم ، فأخبروه أنهم أقسموا ألا يدخل محمد عليهم مكة عنوة هذا للعام ، وطال غياب عثمان ، وشاع الخبر بين المسلمين بأنه قتل ، فعزموا ، إن صح الخبر ، أن ينازلوا للقوم وبايعوا رسـولهم على ذلك ، تحت شجرة هناك ، وسميت هذه للبيعة (بيعة الرضوان) . وهي للبيعة ، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، في قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين ، إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل للسكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة ، بأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيماً » . ولم يلبث عثمان أن عاد ، وأخبر محمداً أن قريشاً قد اقتنعت بغايات المسلمين السلمية ، ومع ذلك فقد أقسمت ألا تكون لهم عمرة هذا للعام .

وأخيراً أرسل مشركو قريش (سهيل بن عمرو) ، وتمت ، بينه وبين الرسول (ص) ، معاهدة سميت ، (صلح الحديبية) ، وتنص على ما يأتي :

١- أن تقف الحرب بين الطرفين عشر سنين .

٢- أن يرد الرسول من يأتيه من قريش ، دون إذن وليه .

٣- ألا تلزم قريش برد من يأتيها من عند محمد .

٤- من أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدا فله ، ذلك ، ومن

أراد أن يدخل في عقد محمد وعهده ، دخل فيه .

٥- أن يعود محمد وأصحابه هذا العام ، دون عمرة ، وأن يدخل

مكة في عام مقبل ، بعد أن تخرج منها قريش ، ويسمح له عندئذ بالبقاء

فيها ثلاثة أيام ، ولا يحمل خلالها المسلمون إلا السيوف في أعمادها .

أصاب المسلمين غم شديد وحزن عميق من عقد هذا الصلح ،

الذي رأوا فيه ضعفاً واستسلاماً لقريش ، ورضوخاً لكبريائها ،

وتحقيقاً لأهدافها ، وظهر ذلك على وجوه المسلمين ، حتى أنهم تأخروا

عن تنفيذ أوامر الرسول (ص) ، حين أمرهم أن ينحروا الأضحيات ،

التي جلبوها للنحر ، ويحلقوا رؤوسهم ، ولم يفعلوا ذلك إلا بعد أن رأوا

رسول الله (ص) قد نحر أضحيته ، وحلق رأسه .

لقد كان موقف (عمر بن الخطاب) يوضح نفسية المسلمين ، في تلك

الفترة ، حين وقف يقول لأبي بكر ، وهو ينظر في شروط قريش :

« فعلام نعطي للذنية في ديننا ؟ » . فقد رأى ، كما رأى معظم المسلمين ،

ما وراء ذلك الصلح . وكان الحكم الفصل آيات ، أوحى بها إلى رسول

الله الكريم ، فتلاها على أصحابه ، فزال الشك والريبة من قلوبهم ، حين

سمعوا قول الله تعالى . « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، لبغض الله لك ما تقدم

من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً .

لقد ترك صلح الحديبية نتائج هامة بالنسبة للمسلمين ، لم يكن
يلحظها، في أثناء عقده، إلا بعيد النظر ثاقب الذكر، ومن أهم هذه النتائج:
١ - اعتراف قريش بالمسلمين طرفاً مساوياً لهم، واعتبارهم زدا
لها، وهذا الاعتراف بكيانهم هو اعتراف يمنحهم مركزاً وقوة بين
العرب .

٢ - منحت مدنة السنوات للعشر المجال الواسع أمام محمد (ص) ،
ليتفرغ خلالها لنشر الإسلام في مناطق جديدة، ولينظم أموره تنظيمًا كان
يشغله عنه عداء قريش وقتها .

٣ - تفرغ للرسول (ص) لمخالفة بعض القبائل ، التي سمح للصلح
بأن تحالف من تشاء من الطرفين .

٤ - كان شرط إعادة المسلمين الجدد إلى مكة سبباً في إحداثهم
للقلاقل والمتاعب لقوافل قريش بين مكة والمدينة ، ولم يكن محمد
مستولاً عليهم ، لأنه ردهم إلى ذويهم ، حتى جاءت قريش ، ترجوه قبولهم ،
متنازلة عن ذلك الشرط في صلح الحديبية .

٥ - تفرغ الرسول (ص) لنصفية حسابه مع اليهود في الحجاز ،
وكانوا ما يزالون يبدسون ويتآمرون .

غزوة خيبر (سنة ٧ هـ)

ما برح لليهود بكيدون الإسلام ونبيه ، كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وعلى
الرغم مما أصابهم على يد المسلمين من هزيمة وقتل وتشريد ، فإنهم استمروا

في تأليب العرب ضد محمد وصحبه، ووجد للرسول، في صلحه مع قريش، فرصة لتطهير الحجاز من الجيوب لليهودية، المنتشرة في بعض المعاقل، شمالي المدينة، وأقواها في خيبر، حيث كان يهودها يبيتون مؤامرة جديدة للزحف، للقضاء على المسلمين. وتوجه للرسول، مع ألف وأربعمائة مقاتل، لمقاتلة يهود خيبر، للذين كانوا لا يقلون عن هذا للعدد، وتمنعهم حصونهم، ويفودهم (سلام بن مشكم). وأرسل للرسول قوة صغيرة توهم قبيلة غطفان، حلفاء لليهود، بأنها ستهاجم ديارهم، فأسرع بنو غطفان إلى ديارهم، لحمايتهم، في الوقت، الذي كان محمد وصحبه يطبقون فيه على معاقل اليهود، في خيبر، وبذلك أبعدت مساعدة غطفان لليهود خيبر، في هذا للصراع الحاسم مع بقايا لليهود.

ضرب المسلمون الحصار ليلاً على خيبر، وبدأ للقتال، مع طواع للفجر، قتالاً مريراً، استمر فيه لليهود، لأنه في نظرهم قتال حياة أو موت. وكذلك استمر فيه المسلمون، وهم على يقين بأنه لا راحة لهم ولا هدوء، مادام لليهود يجاورونهم، ويكيدون، ويتآمرون.

قتل قائد لليهود، (سلام بن مشكم)، وتولى قيادتهم (الحارث بن أبي زينب)، وجرح من المسلمين في اليوم الأول، خمسون مقاتلاً، لضرارة للقتال، وركز المسلمون الهجوم على حصن ناعم، حيث كان اليهود قد جعلوا منه مستودعاً لذخائرهم، واستمر للقتال حوله ثلاثة أيام، انتهت بقتل قائد لليهود، الحارث، واستسلام الحصن. فأضعف سقوطه من معنويات لليهود، وشدد المسلمون على حصن اللقموص، فاستسلم أيضاً، كما سقط

حصن للصعب بن معاذ ، وكان مستودعاً لأغذية لليهود ، وقد حل سقوطه مشكلة حاجة المسلمين للمؤونة . واستمر سقوط الحصون ، على الرغم من شدة دفاع اليهود ، واستماتتهم أمامها ، ولم يبق منها إلا حصن اللوطيح ، وحصن السلام ، فاجتمعت عليهما قوة المسلمين ، وأدرك لليهود هزيمتهم ، ومصيرهم المحتوم ، فعرضوا للأصلح على الرسول ، فقبله ، وأبقاهم على أرضهم ، يزرعونها . ويقدمون نصف المحصول ، ويأخذون للنصف لأنفسهم ، مقابل عملهم فيها ، وقد أراد الرسول (ص) أن يستفيد من خبرتهم للزراعة ، وعاملهم بعد استسلامهم معاملة طيبة ، حتى أنهم طالبوا برد بعض صحائف من التوراة ، وقعت في أيدي المسلمين ، بين الغنائم ، فأمر الرسول بردها إليهم . وعرض الرسول (ص) على يهود فدك الاستسلام ، على شروط خيبر ، فقبلوا ، دون حرب . كما صالح يهود وادي القرى ، على نفس هذه الشروط ، بعد مقاومة بسيطة . واستسلم على نفس هذه الشروط أيضا يهود تبء ، بدون قتال .

وهكذا تم للقضاء على كيان اليهود ، في جزيرة العرب ، وأصبحوا يعملون في قراهم ، بعيدين عن جوللتأمر واللكيد ، بعد أن هدوا تحت إشراف المسلمين ومراقبتهم ، وكان يأتيهم عبدالله بن رواحة ، في كل عام ، يقدر عليهم محصولهم ، لأخذ نصفه لدولة الإسلام ، وحاولوا أن يرشوه ، ليخفف عنهم مقدار ما عليهم ، فلم يفلحوا في ذلك .

وبقى يهود خيبر على أرضهم حتى خلافة عمر بن الخطاب ، فلما رأى منهم الغدر ، حينما جرحوا (عبد الله بن عمر) قضى عليهم ، وقبل إنه أراد أن ينفذ قولا ، سمعه من الرسول (ص) ، وهو « لا يجتمعن في جزيرة للعرب دينان » ، وأمر بإجلالهم نهائياً عن الحجاز .

الفصل السادس

تعميم نشر الدعوة الإسلامية

إن للدعوة ، التي حمل محمد (ص) رسالتها ، وأمانة تبليغها ، لم تكن قاصرة على العرب وحدهم ، وإنما كانت عامة ، للناس أجمعين . وللقرآن الكريم يخاطب بآياته للناس ، دون تفريق ، أو تمييز : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » . « يا أيها الناس ، اتقوا ربكم ، الذي خلقكم من نفس واحدة » . « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً » . « إن هو إلا ذكر للعالمين » . « تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » . « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » .

لهذا أفاد الرسول (ص) من الفرصة التي منحتها إياها الهدنة مع قريش ، وقام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ملوك الدول ، المجاورة لجزيرة